مكتبة الاخلاقيات الدينية

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

ترجم عن التركية

المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٩

240 : L72 m A
ليفونيان - لطفي
الاخلاق الدينية . معرّب

JAN 5 389	
NOV 21 389	
DEC 5 389	
APR 13 37	
DEC 17	

240
L72mA
C1

مكتبة الاخلاقيات الدينية

الكتاب الاول

ما هو الدين

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

ترجم عن التركية ونشر بعناية المطبعة الاميركانية

38625

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٩

مقدّمة عامة

ان الحاجات المادية تشغل الناس في الامور الاقتصادية والاجتماعية فيعرض للافراد في حياتهم الذاتية وللملل في حياتها الاجتماعية كثير من المسائل المشكلة . وهذه المسائل التي تبدو لنا فنظنها اقتصادية او ادارية محضة هي في الحقيقة مبنيـــة على اساسات خلقية وروحية

انما حل هذه المسائل المشكلة لا يتم الا في تجدد خلقي روحي ولكي يكون الناس اكثر سعادة واوفر افادة في حياتهم الذاتية والاجتماعية وجب عليهم ان يتتبعوا من وجهة نظر جديدة هذه الاساسات الخلقية والروحية ويحققوا فيها لانها المسيطرة على امور الحياة

وغايتنا ان يحصل لنا الحظ والغبطة بان ندل على السبيل المؤدي الى اعلاء مستوى كلٍّ منا شخصيًّا وارتقاء بلادنا الى مستوى رفيع في الحياة متحرين الحقيقة من غير ما تحيز في هذه المواضيع الكثيرة الاهمية وهذه المبادىء التي هي بناء حياتنا الذاتية والاجتماعية

ما هو الدين

ان احد المبادىء التي تسيطر على حياتنا الذاتية والاجتماعية واهمها بل راسها هو الدين وانهُ على قدر وكيفية اعتقادنا في ديننا يتكون حوالي ذلك الاعتقاد مظهر مادي لحياتنا وعلائقنا ولا شبهة ان الدين ، والله ، والدنيا ، والاخلاق وكل ما له حكم في معنى الحياة ، هي عوامل اصلية متسلطة على حياتنا وذلك باعتبارها عناصر اساسية هامة وفي الحقيقة ليس الدين بامر منحصر باشخاص وازمنة خاصة . بل هو عامل متعلق بكل شخص في كل مكان وكل زمان ولهذا فان انعكاسات الاعتقادات الدينية وتأثيراتها المقابلة وعلى الاخص في العلائق البشرية المتسعة في هذا العصر قد شملت العالم كلهُ

بناءً عليه فقد وجب علينا اولاً ان نتحرّى جيداً ماهية الدين ونزيل من عقولنا الاراء المغلوط فيها

وبذلك نبني افكارنا على اساسات قويمة وندير ذواتنا في علائقنا ادارة سالمة صحيحة ونكون مفيدين للمجموع البشري

(١) في الافتكار غلطاً في الدين

يرى كثير من الناس ان الدين عبارة عن نظام ذي مراسم خارجية وانهُ مجموعة قوانين تتضمن اوامر ونواهي متعلقة بظاهر حياتنا

فشاغل هولاء واهتمامهم هو المحافظة على القيام بمراسيم الدين الخارجية واقامة الصلاة والطقوس في اوقاتها حتى في الدقيقة المعينة واتمام فروض الصيام

وعندهم ان المطاليب الدينية تنتهي باقامتهم على وجه ميكانيكي الفروض الدينية دون ان يشركوا فيها ذاتيتهم الخلقية

وعلاقتهم بحياتهم الدينية تنحصر في الاوقات التي يقضونها في المعابد

ان الذاتية الخلقية هي عندهم كلمة فارغة لا معنى لها

فالقَسَمُ كذباً والحيلة ولو لاجل ربح عشر بارات لا تمسان ولا تقلقان اصلاً حياتهم الدينية ذلك لانهم قد اقاموا الصلاة في وقتها واتموا عبادتهم وفقاً لاصولها واركانها

فمن آثار العادة فيهم انهم نزلوا منزلة الالة الصماء يعملون اعمالهم على العمياء وامسى خارجاً عن عقلهم وادراكهم ما هو موقع الدين من الحياة وما هي علاقة الدين بالذاتية الخلقية فلا يفقهون ولا يدققون في البعد الشاسع الذي بين ما في اعمالهم من عدم الانصاف ومن الاحتيال وبين مقصد الدين العلوي وغايتهِ الشريفة

فهم يتممون المراسم الدينية حرفياً ولا يفكرون قطعاً في الحياة . وعند المساء بينما هم في بيوتهم يتذكرون موازنة حساب اعمالهم وعلائقهم مع الناس التي مرت في النهار ولا يخطر لهم ببالٍ حياءٌ او خجل من الاحتيالات

والاطماع التي ارتكبوها بل بكل غرور يذكرون ما اجروه على وجه ميكانيكي من مراسم الصلاة والطقوس التي اقاموها باوقاتها

فمن تلقى واعتبر الدين على هذا الوجه كم تكون حياتهُ مملوءَة بالرياء ومستورة بحجاب من الوهم

ان الدين بهدفهِ وقصده العالي بعيد ولا شك عن هذا الاعتقاد

ان في الدين مراسم واوامر ونواهي ولكن للدين ايضاً علاقة بما هو ادق من هذا واعمق ألا وهو الخلق الشريف

ان نظافة الجسد امر مرغوب فيهِ ولكن الدين يأمر ايضاً بنظافة القلب والفكر وحقاً ان انواع الفساد والرداءة ليس مصدرها الاجساد بل الافكار والضمائر

ان نظرية كون الدين ليس سوى عبارة عن مراسم خارجية تشابه كل من وجه نظرية طالب علم صيني عرفتهُ في انكلترا بحق المدنية فهذا الشاب كان يقلد كل التقليد

الشبان الانكليز في الملبس والزينة وكان يعتقد ان التمدن عبارة عن ذلك فلبس الثياب الجميلة النظيفة امر مرغوب فيهِ طبعاً ولكن ليس بهذا اللباس الجميل النظيف يطهر الفكر وينقى الضمير . وهكذا فان الحياة الدينية التي لا تصل الى القلب والضمير بل تكتفي باجراء المراسم الخارجية تشبه اعتقاد هذا الشاب الصيني في المدنية

وليس للدين من رائحة في الادعية الطويلة والصلوات النافلة التي يقيمها الذين لا يفكرون بتنقية قلوبهم من الحسد والطمع والحرص

ان القلوب الملآنة جشعاً ورياءً لا يرى ذووها وجه الله ولكن يتمتع بهِ ارباب القلوب الطاهرة والضمائر الحية الذين يقومون بعبادة وصلاة حقيقة ولا تقبل العبادة ما لم تصدر عن اخلاص وطهارة

(٢) وفي اعتقاد البعض الاخر : ان الدين هو الدخول بمراسم خاصة في جمعية دينية والتعيين عضواً لاحدى الفرق المذهبية

فهو في نظرهم حرز حاوٍ قوة خارقة العادة يصون تابعيهِ من كل المصائب واخطار الحياة الحاضرة والمقبلة واما الكهان المنفذون لهذه العقائد الدينية فهم في نظرهم اشخاص ممتازون بهذه القوة الساحرة وبسبب ما لهم من تلك القوى وبقوة الطقوس والمراسم التي يجرونها يمنحون الحياة الابدية فمن تقدس مرة بواسطة تلك المراسم المخصوصة اصبح دائمًا مقبولاً عند الله

ومن كان هذا اعتقادهُ في الدين فهو يستند بذلك الى الاحساس وعنده ان اشد الناس تديناً هو من راى رؤيا او نزل عليه وحي

ان احساسهم الجائش في ذلك المعبد المذهب الملان فضاؤه بالاسرار العجيبة وامام تلك الشموع المتقدة بانوارها الصفراء وذلك البخور العطري المنبه المخيلة . هذا الاحساس يجعلهم مقتنعين تمام الاقتناع بصحة اعتقادهم

وهناك في دهاليز تلك المعابد الرطبة المظلمة يرطون حرارة اشتياقهم الديني

ان بين هذه المذاهب و بين الدين الحقيقي هوة عميقة وبوناً شاسعاً . اجل ان للاحساس في الدين مقاماً ولكن الدين لا يكترث للاحساس الذي لا علاقة لهُ بالحياة بل هو اقوى واشد محافظ على الذاتية الخلقية الضرورية للحياة الملانة بالجدال والخصام

فالظن ان الذهاب مراراً الى المعبد واستغفار الذنوب بتلاوة الادعية غيباً في مراسم واسرار غريبة يصلنا بالله هو ظن فاسد

الدين لا يطالبنا باضطرام احساسنا واهاجتهِ بل يطالب باثارٍ خلقية في افكارنا فهو يطلب ان يكون لنا وجدان طاهر ونزيه وان نترفع باخلاقنا عن دركة اشراكنا الله في احتيالاتنا وايماننا الكاذبة في معاملاتنا اليومية

فالتدين ان نحوز في نفوسنا ملكة اخلاقية تلزمنا على احترام ابناء جنسنا ونقابل بالمحبة خصام اعدائنا

ان المؤرخ الشهير بلوتارخ عندما كتب عن دين اليونان القدماء قال ان الناس قد عبدوا الاله ابللو في

دلفي ثلاثة الاف سنة ففي الحقيقة ان مدينة دلفي كانت مزدانة باثار اعظم النحاتين والفنانين وابعدهم شهرة وقد كانت المراسم والطقوس تجري هناك باحتشام واحتفال عظيمين جداً

ولكن التاريخ قد نقل لنا بذلك درساً مفيداً وموثراً فانهُ لم يبقَ من اثار دلفي واثار ابللو شيءٌ سوى معلومات وضيعة في احدى زوايا التاريخ

ان دين المصريين القدماء قد سيطر على الاهالي اربعة الاف سنة فان مصر قد اظهرت اقتدارها الصناعي في معابدها الفخمة وفي تلك التماثيل التي كانت تزين المعابد فالكهنة المصريون الذين كانوا يتشحون من الراس الى القدم بالالبسة البيضاء مثل الثلج كانوا يتركون في نفوس الوف الزائرين الوافدين من كل الجهات قوة قدسية ولكن اليوم لم يبقَ لذلك الدين ولا لاولئك الكهنة من اثر

فالسبب الاصلي لانقراض هذه الاديان التي

تحكمت في الناس الوف السنين هو الظن بان الدين نوع من السحر وتجريده من الاخلاق والحياة فكثيراً ما كان يذهب بعضهم الى تلك المعابد مسوقاً بادنى واسفل المقاصد والنيات وكانت تلك الامكنة المؤسسة للعبادة اسهل الوسائط للوصول الى تلك الغايات السافلة لان الكهنة العالمين بما يضمره هؤلاء الناس كانوا يغضون الطرف لقاء ما يقدمون للمعبد من الدراهم . والالهة لم تكن تعترض على ذلك . لانهُ لم يظهر ان بين ذلك الدين والاخلاق من علاقة

انها والحق اعتقادات واوهام فاسدة . . .

ان الاحساسات الخلقية راسخة في اعماق الانسان والحياة التي لا فرق فيها بين الحقيقة والوهم و بين الصدق والكذب هي حياة بعيدة عن الدين

الدين مؤسس على الحقيقة والدين الذي لا يبني على اساس الحقيقة هذا يشبه بناءً فخماً شيد على الرمل فمثل هذا البناء يملأُ في النظرة الاولى القلب هيبة وجلالاً

ولكن ريحاً قوية تهب عليهِ فتسقطهُ الى الحضيض

فمن شاء التدين الصحيح وجب عليهِ قبل كل شيءٍ ان يحب الحقيقة وان يتخذ الحق لهُ دليلاً

(٣) والدين عند قسم اخر من الناس هو المعرفة فيحسبونهُ جزءاً من العلوم الفكرية

وبناءً عليهِ فعندهم ان اساس الدين هو الاقتدار على الافتكار القويم بالمسائل الدينية والالهيات

فالوقوف على الاسرار الالهية وتعلم الكتب المنزلة والملهمة من اولها لاخرها وادراك رموزها بصورة غير التي يفهمها بها الناس والتكلم بكلام صحيح عن الايمان وبكلمةٍ واحدة : كون المرء حكيماً وعالماً هو الدين عندهم

وبناءً على هذا المذهب هم يقرأون الكتب ويجتهدون بفهم تفاسيرها ويسعون ليكون لهم نظرية مستقيمة عن الالوهية والتكوين وامور الاخرة . واستناداً الى هذه المعارف يدعون بانهم متدينون

ان في هذا المذهب بعض الحقيقة . لان العلم قسم من الدين الصحيح و يلزم في الدين الحقيقي ان يكون المرء عارفاً معرفة قويمة . ولكن الدين باعتبار ماهيته ليس المعرفة . ولو كان كذلك لاصبح في حكم الطبيعة خاصاً بالمتعلمين ولوجب لكي يكون المرء متديناً ان يطيل الجهد في التعلم والمطالعة

فالحق ان الدين هدفهُ في الحياة الوضع القويم فمن رغب ان يكون متديناً عليه ان يتخذ لهُ وضعاً قويماً وانهُ لافضل ديناً ان يحرز الانسان وضعاً قويماً امام الله والناس الذين يعيش واياهم من ان يجهد نفسهُ لاحراز معلومات صحيحة عن الله والعوالم فالدين الصحيح يعلمنا باصرار وتاكيد ان الله واحد . والمتدينون يقرّون و يعترفون بوحدانية الله . ولكن الدين لا يتم بالاقرار والاعتراف والاعتقاد بوحدانية الله فحسبُ بل وبالتعبد لله الواحد بالروح والقلب و بالاعتراف بان كل البشر هم خاصة الاله الواحد وبمعاملتهم بالحق والانصاف . لان الدين هو ارتباط

ذاتية الانسان بحضرة الله وانطباق ارادتهِ الذاتية على الارادة الالهية

واساساً يوجد فرق كبير بين المعرفة والايمان ومما يوجب الاسف الشديد كون الكثيرين من الناس اصحاب النظر السطحي يظنون ان المعرفة الصحيحة هي الايمان ومما يؤيد قولنا الآية التي جرت مجرى الامثال (اسمعوا اقوالهم ولا تفعلوا افعالهم)

فالدين ليس مجرد العلم والمعرفة بل هو صلاح القلب وصلاح العمل

ومن الاكيد ان معرفة كتب جميع الانبياء والوقوف على اعمالهم ودرس سيرهم هي امور مفيدة حميدة لكن اصل الفضيلة هو عمل الخير بين كل الناس بلا تفريق وتجنب الطمع . ولو ان المعرفة وحدها تكفي الانسان لكانت الكلمات اللامعة والحكم الساطعة شملت دساتيرها الخلقية كل المسكونة

فعوضاً من المشاحنات والمناظرات الطويلة في ما هو

الحق يجب ان نملك قلوباً طاهرة ملانة من حبنا الناس

لو لخصنا كل الاراء المخالفة التي مر بنا ذكرها لاتضح لنا ان الخطل في الاعتقاد الديني ناشيء عن النظر سطحياً الى حقيقة الدين وغايته

وفي الواقع نرى الناس يعتقدون ان الدين واسطة لنجاتهم من يد الله القادرة بتسكين غضبهِ الهائل وسبيل سعيد سهل ينتقلون عليهِ من عذاب جهنم ذات النار والعفاريت الى الجنة الخضراء التي تجري في حقولها الانهار

يعني ان الناس اما انهم يلجئون الى الدين بتاثيرات الطقوس والمراسم الساحرة الجذابة وباجراء العقائد الخارجية . واما انهم يتحرون في الدين السعادة الابدية عن طريق المباحثات في كلام الايمان الذي يعتقدونهُ قويماً

والفرق بين المتدين والملحد ليس في كون احدهما يؤمن بالمراسم والعقائد والاخر ينكرها انما الفرق بينهما هو في تفهم معنى الحياه وموقف كلٍّ منهما امام شؤونها

وها نحن نوضح هذا الفكر وهذه الحياة بمثلٍ نضربهُ

كانت سفينة تبحر في ليل مدلهم فارسلت انواراً متقطعة في كل ثانية وكان بعض ركبانها يتفرجون على تلك الانوار فاخذ كل منهم يفهم هذا العمل طبقاً لرايهِ وخلافاً لما فهم الاخرون . فقال واحد انها لعبة للسلوى وللاستهزاء من ظلام الليل وزعم الاخر وكان من الشعراء انها نجوم صناعية تضيء وتنطفي واعتقد الثالث وكان مصيباً انها اشارات تدل على توقع حدوث خطر فاتخذ لنفسهِ اسباب الخلاص

هكذا هي الحياة فانها تشبه كثيراً هذا المثل

مسرات الحياة ومصائبها مشاع بين الناس المؤمن والكافر على ان المؤمن الحقيقي يتلقى المصيبة بصبر ويعتقد انها افتقاد من الله لاجل ايقاظه وتنبيههِ فيزداد جسارة في اعمالهِ الصالحة بينما الملحد يسرّ سروراً لا يوصف من حسن الحظ والطالع واما عند المصيبة فيسقط في هوة اليأس ويلعن الحياة ولا يفهم معناها ومثل

اوراق الخريف يصفرُّ ويتناثر

فهذا هو الدين . ان تفهم معنى الحياة جيداً وان تقف عند المصائب موقفاً قويماً واعلم انهُ لا يتم لاحدٍ ان يقصي حياة كاملة سعيدة الا بواسطة واحدة هي هذا الدين الحقيقي الذي يدلك على هذا السبيل ويعلمك كيف تقضي الحياة بالسعد والكمال فاذا نظرنا الى اعتقاداتنا الدينية ودققنا بها من وجهة النظر هذه نصل الى الحقيقة الدينية . ونحن اليوم اكثر من كل يوم حاجة الى هذا التدقيق واشد افتقاراً اليهِ من كل شيء

في حياة يسوع المسيح علمٌ لمن يريد ان يتعلم معنى الحياة ودليل لمن يرغب بان يقف موقفاً قويماً فيها فهي لمن يريد ان يفتكر في الدين افتكاراً صحيحاً مرشد صادق

ان في حياة هذا الذات الذي عاش في الدنيا فرداً من عائلة نجار فقير فلفت اليهِ انظار العالم درساً مفيداً لمن يجتهد بتفهم هذه الحياة الدينية وفائدة كبرى

فانهُ وان كان لم يبتدئ باعماله العلنية الا بعد الثلاثين

من عمره غير ان المعلومات الكافية عن حياتهِ حتى ذلك العمر موجودة فكان يقوم باعاشة والدتهِ الارملة واخوتهِ وعاش في الناصرة نجاراً وكان انموذجاً ومثالاً للحياة الدينية الحقيقية بين شواغل النجارة والبناء وكان لكل مجاوريهِ مثالاً صالحاً

ان الحديث المنسوب اليه الذي يقول «اثقب الخشبة فتجدني . ارفع الحجر فانا هناك» هو بالحقيقة حديث ذو مغزى كبير لانهُ يصور لك صفاء الحياة الدينية حيث كان شغلهُ في الناصرة ثقب الخشب ورفع الحجر فهوذا المسيح قد دقق من بين هذه المشاغل الوضيعة في حياة الامة اليهودية فراى ان تلك المراسم الدينية الفخمة التي كانوا يقيمونها وتلك الادعية الطويلة التي كانوا يدعون الله بها ليست ديناً

ان اليهود في الفصح كانوا يفدون الى اورشليم من كل الجهات و يجتمعون في ذلك المعبد الفخم المزين باجمل ما صنعت ايدي مهرة الصناع من تماثيل ورموز وصور

ويقدمون ضمن مراسم عديدة القرابين والمحرقات فعرف المسيح ان اساس هذه العبادة لم يكن سوى مظهر خارجي من مظاهر الدين وايقن ان الدين هو شيء آخر اعلى واسمى جداً من هذه العبادة

ان تلك العظة الكبرى التي القاها على الجبل لم تكن خيالات شاعر جاشت في صدره العاطفة بل كلام متصاعد من اعماق روح رئيس العائلة الفقيرة التي تحمل عبء اعاشتها فوقف على اعماق اسرار الحياة الحقيقية وحاجاتها

فقال ان السعادة ليست لذلك الغني المغرور بل لذلك الذي يقسم امواله مهما كانت قليلة بين الفقراء والمحتاجين وان البركة ليست لمن يرى ان كل الوسائط مشروعة لاستحصاله على حقه بل لذلك البريء الذي يبكي . وان الطوبى ليست لذلك المتحكم في الناس بل لذلك الظامىء الى الصلاح

هذه العظة كانت اسلوباً جديداً لايضاح معنى الحياة جيداً وفهم حادثاتها . انه كان موقفاً جديداً

كثيراً ما حير والدتهُ واخوتهُ لانهم لم يكونوا يفهمون نفسيتهُ

المسيح ما كان ينظر الى الله من جهة انهُ قادر قاهر لا يمكن اجتناب غضبه او حاكم مطلق يكافي من يطيعهُ ويجازي من يعصاه . بل كان المسيح يرى في الله اباً شفوقاً يريد السعادة الحقيقية لابنائهِ الذين يقبلون مشيئتهُ

وكان تابعاً لله لا عن خوف وخشية ولا عن انتظار مكافاة بل عن علم بان السعادة الحقيقية هي في اتحاد الروح بالله والسلوك في طرقهِ

والعجيب المدهش في حياة المسيح ليس المظالم والتعديات التي تحملها بل موقفهُ امام تلك التعديات والمظالم موقف المسرور المتين القلب

فحقاً ان هذا هو الدين الحقيقي

كم من الناس من يظن نفسهُ سعيداً ايام يتمكن من تجنب مصيبة او خطر مع ان السبيل المودية الى السعادة

الحقيقية ليست هي هذه السبيل بل الاعتقاد بان الله منحنا كل شيء لاجل قصد سامٍ شريف وان نرى في حادثات الزمان معنى جديداً هو السبيل الوحيدة الى السعادة الحقيقية

لذلك لم يقبل المسيح المراسم ولم يؤلف في ادارة الرهابين هيئات روحية ولم ينظم احكاماً وقوانين تتضمن اوامر ونواهي متداعية السقوط والتهدم امام صدمات الزمان وتقلباتهِ حتى انهُ لم يرَ لزوماً لكتابة كتاب ولو مختصراً . انهُ كان يعظ في الحقول والبراري عن الزهور والطيور ويتكلم عن حاجات الناس الابدية الحقيقية

فاوضح ان الذاتية الخلقية لا تؤخذ من هنا او من هناك بل تكتسب بالروح والحقيقة انهُ كان يعيش مع الخطاة ومع العشارين المكروهين في ذلك العصر وكان يعلمهم بالامثال الحياة الحقيقية . الحياة الدينية الصحيحة

المسيح كان يعرف ان الله لا يسر بالمحرقات بل بالمحبة وكان يقول حب الرب الهك من كل روحك .

وحب قريبك كنفسك

ان المسيح لم يعطنا مجموعة قوانين وانظمة دينية لكنهُ احب الناس واعطى نفسهُ فداء عنهم لاجل خلاص الساقطين . فهذا هو الذي قلب الحياة الاجتماعية بشخصهِ العالي وحياتهِ المقدسة . ان علماء زمانهِ المتشرعين كانوا قد اشبعوا الجمعية البشرية قوانين اخلاقية ولكن تدينهم كان مكروهاً وحياتهم كانت ملطخة . اما المسيح فانهُ لم يعطِ احكاماً بل عاش مثالاً لاعلى القوانين الخلقية فكان موقفهُ ووضعهُ امام الله والناس وفي جميع ادوار حياتهِ واسبابها موقفاً شريفاً ووضعاً قويماً وكان متديناً حقيقياً فاهماً ماهية الدين ومعناه الحقيقي

ان الشرق منشأُ الاديان كلها

ونحن الشرقيين كنا عمالاً للدين ولنا بهِ علائق حسنة فعالة . ولكن مما يوجب الاسف الشديد ان عقولنا تدنت عن فهم حقيقة الدين فاضعنا جوهره وماهيتهُ واحتفظنا بتعصبٍ بظواهره . ولو لم يكن ذلك منا لما

كان هذا التدني والسقوط في حياتنا الذاتية والاجتماعية.
نحن اهل دين . ولكن في حياتنا الشخصية نحب الباطل على الحق وفي علائقنا مع بعضنا لبعض فعوضاً من اعتمادنا بعضنا بعضاً نحفظ في قلوبنا عداوة لبعضنا البعض وغشاً.
اليوم اكثر من كل يوم ومن كل شيء يجب ان نطبق حياتنا على الدين وان نترك هذه الاعتقادات السطحية

فهل كانت غاية الدين الا الصلح والصلاح بين الله والناس

مكتبة الاخلاقيات الدينية

الكتاب الثاني

اين ينبوع القوة في الدين

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

ترجم عن التركية ونشر بعناية المطبعة الاميركانية

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٩

مقدّمة عامة

ان الحاجات المادية تشغل الناس في الامور الاقتصادية والاجتماعية فيعرض للافراد في حياتهم الذاتية وللملل في حياتها الاجتماعية كثير من المسائل المشكلة . وهذه المسائل التي تبدو لنا فنظنها اقتصادية او ادارية محضة هي في الحقيقة مبنية على اساسات خلقية وروحية

انما حل هذه المسائل المشكلة لا يتم الا في تجـدد خلقي روحي ولكي يكون الناس اكثر سعادة واوفر افادة في حياتهم الذاتية والاجتماعية وجب عليهم ان يتتبعوا من وجهة نظر جديدة هذه الاساسات الخلقية والروحية ويحققوا فيها لانها المسيطرة على امور الحياة

وغايتنا ان يحصل لنا الحظ والغبطة بان ندلـ على السبيل المؤدي الى اعلاء مستوى كل منا شخصيًّا وارتقاء بلادنا الى مستوى رفيع في الحياة متحرين الحقيقة من غير ما تحيز في هذه المواضيع الكثيرة الاهمية وهذه المبادي التي هي بناء حياتنا الذاتية والاجتماعية

اين هو ينبوع القوة في الدين

من اهم المسائل في باب البحث في الدين مسألة القوة في الدين

ان الانسان مالك في طبيعتهِ على احتياجات واشتياقات روحانية صادرة عن كونهِ كائناً ذا نفس حية . والانسان محتاج ومشتاق الى الفضيلة اكثر من الرذيلة والى القداسة اكثر من الخطيئة . هو يحارب شهواتهِ الحيوانية رغبة منهُ بان يظل طاهراً ومقدساً وهذا الشوق في الانسان اصلي ودائم ومنذ البدء خلق الانسان مجتهداً عاملاً على المحافظة على هذا الاشتياق الاصلي والاصيل . والدين ايضاً انما كان طبيعياً للانسان لاجل ايفاء هذا الاحتياج الروحاني البشري حقهُ . لذلك كان من اهم المسائل التي تعرض للباحث في شؤون الدين هي مسألة « هل ان الدين هو الذي يوجد السعي لسدّ هذا الاحتياج

واشباع هذا الاشتياق ام ليس هو كذلك ؟ »

اننا في شرح هذه المسألة وتفسيرها نضرب لك مثل الطبيب الذي يدعى لعيادة مريض على خطر . فهو بين ان يعمل على معالجتهِ متكلاً على علمه وحذقهِ فيداويهِ ويعيده للجهاد في الدنيا نشيطاً قوياً وبين انهُ بالرغم عن وقوفهِ على شدة الخطر ووخامة الحال وعلمهِ بعجزهِ عن شفائه يقول لهُ مرضك بسيط ويعده بالشفاء القريب ويخدّر اوجاعه بالعلاجات الكاذبة فيهدأ حاله قليلاً ويعود الى اعمالهِ نحيفاً ضعيفاً منهوك القوى

هذا التشبيه ينطبق على الدين من وجهة النظر الى الحياة والاخلاق . فهل كان الدين في الحقيقة حائزاً على منبع قوة صحيحة كافية لان تشفي ضعف اخلاقنا وتعيدنا الى الجهاد والحياة نشيطين اقوياء او ان الدين واسطة لتخديرنا ببعض تدابير مغفلة عوضاً من ان تستأصل منا امراضنا الاخلاقية من اساساتها :

هل ان الدين قوة تنقلنا من سافل الى عالٍ ومن

نفسانية الى قدسية ومن بهيمية الى كمال الانسانية ام ان الدين عبارة عن هيئات منظمة لكي تتصرف بنا وبدون ان نشعر تضبطنا في ايديها ولكنها تصطادنا بالوعد في السعادة المستقبلة لقاء اتعابنا في جهادنا في الحياة

ان كثيراً من الفلاسفة القدماء كانوا يأمرون ويوصون الانسان بان يكون دائماً مسروراً وفرحاً ولكنهم لم يوضحوا لهُ ما هي وسائط الفرح والسرور حتى انهُ كثيراً ما كان اكبر معلم يسقط في هوة الحرص السافلة بناء عليه هل كان الدين عبارة عن قصيدة تتضمن افكاراً عالية لا يمكن الانسان الحصول عليها او كان المقتضي للوصول الى تلك الافكار والمالك للقوة الباعثة على الحصول عليها وبتعبير آخر هل ان التدين باعتبار اساسه هو خيال وفكر او انهُ ذو قوة حقيقية تعطي المتدين حياة . هوذا مسألة في باب الدين من ادق المسائل واهمها وفي مطالعتهِ هذه المسالة ودرسها لا بد لنا من التدقيق في مزايا الانسان الاصلية واحتياجاتهِ الروحية

وتحليل ذلك

فالى ماذا يحتاج الانسان روحيًّا ؟

اولاً ان الانسان في محيطهِ الباطني وفي عوامله الداخلية وفي افكاره ومطالعاتهِ يحتاج دائمًا شديد الحاجة الى الانتظام مع المقدس والظاهر من الامور

اجل ان كثيراً من الناس قد افلتوا من هذا القيد وامسوا مثل اسراب الحيوانات أسرى شهواتهم الحيوانية فحيث يشمون رائحة شهوة يلقون بانفسهم اليها ولكن من كان منهم مفتكراً ومتاملاً بمعنى الحياة يشعر انهُ ما زال في ميدان الجهاد الاخلاقي فكما يشعر بحاساته الدينية فانهُ يشعر ايضاً بما في قلبهِ من دافع صالح ورغماً عن عزمه الاكيد على اتباع الصلاح فانهُ يعترف بانهُ كثيراً ما يتغلب عليه الشر

حقًا ان الانسان من جهة احوالهِ الباطنية يشبه ارضاً تحتلها عصابات الاشقياء فهو دائمًا عرضة لهجوم الحاسات الغريبة المتحصنة هناك فبدلاً من التحاقهِ بالصالحات

يلتحق رغماً عنهُ بالاطماع التي كان ينفر منها . ان عالم النفس ينقسم عادة الى قسمين ففي الشخص الواحد شخصيتان متخاصمتان لذلك كان علينا ان نتحد مع ما هو حيٌّ فينا من المدارك العالية وننـدفع بشوق الى الانتظام مع الشواعر الصالحة . فكل انسان منا محتاج الى هذا الانتظام الباطني

ثانياً ان الانسان محتاج الى الاتفاق مع الاشخاص الذين لهُ بهم علاقات و بالتالي مع الهيئة الاجتماعية البشرية

ان العقول السليمة تشمئز من الجدال والتنازع والتضارب والاقتتال والمحاربة التي ليست في الاصل سوى طمع بهيمي

ان الانسان الكامل الصالح يريد ان يعيش في بيتهِ بالصلح والراحة مع عائلته واولاده وجيرانهِ واقربائهِ ومع جميع الناس .

فسعادة الانسان الحقيقية لا يجدها في الجدال الدائم بينهُ وبين ابناء جنسهِ بل يتيسر لهُ هذه السعادة بالتعاون

والتعاضد والصلح الحقيقي معهم . انهُ لخيرٌ للانسان ان يربح صديقاً من ان يكثر اعداءه وان يعيش محبًّا للناس من ان يبغضهم . ان هذه الموازنة وهذا الانتظام التام وهذه المصالحة الحقيقية هي ما يحتاج اليهِ المرء في حياتهِ الانسانية وهذا الشعور هو ايضاً اصلي ودائم في الانسان

ثالثاً . ان الانسان يريد ان يكون متحداً مع الله فهو بفطرتهِ لا يمكنهُ ان يستريح ما لم يتقرب الى الله بقربى صحيحة و يرتبط بهِ بصداقة متينة . انهُ يشتاق الى مصالحة الذات الجليل المبدع هذا الكون الفسيح وهذا ميل طبيعي عام في جميع ابناء البشر حتى متوحشي افريقيا القاطنين في الادغال والاحراج البعيدة عن التمدن فانهم يعتقدون بوجود قوة فوق الادراك و يريدون ان يعيشوا معها متصالحين متفقين و يتوسلون لاسترضائها بالوسائل العديدة التي يظنونها مفيدة

واما المتمدنون من الناس فانهم يعتقدون ان هذا الذات الجليل هو حق وقدوس ورحيم و يتوقون الى ان

يعيشوا معهُ بصلح قلبي روحي فالانسان عوضاً من ان يفترق عن الله وان يخاصم الله يجتهد بان يكون متحداً مع الله وصديقاً لهُ. ان هذا الاشتياق الروحي هو طبيعي في كل انسان مفكر وهو رجاء وجداني لهُ

ويمكننا ان نلخص جميع ما سبق لنا ذكره بقولنا ان احتياج الانسان الروحي واشتياقه كائنان في انتظامهِ وارتباطهِ في حياته الذاتية وفي علاقاتهِ مع ابناء نوعه وبالذات الجليل المبدع العالم. واهم امر في حياة البشر هو تحقيق هذا الانتظام والارتباط. كثيرون هم الذين ينظرون الى هذه المسألة المهمة نظراً سطحياً ضعيفاً فيتوهمون انهُ لو نزعنا من المحيط البشري الخارجي ما يبدو لنا فيهِ من عدم الانتظام والقينا العنعنات الاجتماعية الموجبة للتفرقة وعلّمنا الناس اكثر مما يعلمون فازدادت افكارهم تنويراً يحصل للعالم السلامة والانتظام. انهم قد غفلوا عن الحقيقة فان عدم الانتظام ليست اسبابهُ الحقيقية في المحيط البشري الخارجي بل هي في اعمق من ذلك ولهذا

لم تكن المسألة من البساطة عند الدرجة التي يظنون

ان اسباب الضعف والنقص في البشر ليست في عدم تقديرنا الافكار العمومية بل هي بالحري في شعورنا بالعجز عن الوصول اليها

ان سقوطنا لم يكن سببه الاصلي عدم معرفتنا كيف يكون الانسان كاملاً بل عدم حصولنا على المقدرة الاخلاقية اللازمة ليكون الانسان كاملاً

لذلك كان اساس المسالة هو ايجاد منبع القوة اللازمة لاكتساب الاقتدار على الكمال وهذا هو ما يجب ان نتحراه في الدين لانهُ المكلف بتحقيق هذا الاشتياق الباطني وتحضير القوة اللازمة لهُ

لكن هل قدرت الاديان ان تكون موجدة العلاج لهذا الاحتياج المعنوي ؟

اذا كان احتياج الانسان الحقيقي في انتظام المرء مع نفسه وفي انتظامهِ مع الله ومع اسباب الحياة فهل تحقق هذا الاحتياج واطمأنّ ؟

واذا كانت هذه هي المسألة المهمة التي وجب حلها من مسائل الحياة فان تنظيمات دينية كثيرة قد يئست من حل هذه المعضلة وعوضاً من العمل بجد لاتخاذ التدابير الناجعة لحل المسالة حلاً حقيقياً فقد دفعوا بالناس في طريق اخرى اكثر سهولة ولكنها مؤدية ظاهراً الى سلامة حقيقية . ومن نقطة النظر هذه وبناء على التعاليم التي تعلموها في مذهبهم فقد ظن قوم انهم لو انزووا عن الحياة في احدى الجهات المنفردة واقاموا بينهم وبين الحياة حاجزاً من الاعتزال يحصلون على الراحة وعلى هذا الانتظام وذهب اخرون الى وجود فائدة سحرية في اجرائهم الطقوس والمراسم المحركة للعواطف والاسرار فالتجأوا اليها من شر غلبة الحياة

واعتقد اخرون ايضاً بانهم اذا تلوا بصدق ايمان بعض جمل وعبارات دينية يعتقدون بصحة انزالها يجدون النجاة والخلاص

وكذلك آخرون قد اقتنعوا بانهم ينالون العفو عن

سقطاتهم وزلاتهم بعملهم بعض مبرات واجتهدوا بان يتعزّوا و يتسلوا بذلك

ان هذه ميول لم تحصل كلها في مكان وزمان معلومين بل حصلت في كل مكان و كل زمان . ولكن ولا واحد منها كان علاجاً حقيقياً لحل المعضلة ودفع الاحتياج الاصلي الاساسي بل عوضاً من ان تكون حاجزاً في امتداد المعضلة وتعمل على حلها بصورة جدية فقد بعدت عنها وكانت نتيجة ذلك البعد قطع الرجاء من الحصول على هذا الانتظام الباطني وعلى هذه المصالحة الروحية

ولما ايقنوا انهم سيظلون في كل وقت اسرى لهذه الاطماع العادية رمى بعضهم بنفسهِ في احضان فرقة مذهبية وحاول ان يرد الغضب الالهي عن نفسهِ باقامة بعض مراسم وطقوس دينية وظن بعضهم انه من المحال اجتناب تيار الحياة الجارف فاودع نفسهُ بذاتهِ وسلمها بدون قيد ولا شرط الى اطماع الحياة وشهواتها والتزم العيش فيها

ان كلاً من هاتين الحالتين قد حصلت من الشعور بالعجز عن حل المسالة الاساسية لان احتياجنا واشتياقنا ليس الى التفتيش عن جسر نعبر عليهِ من جهنم الرهيبة الى عدن ذات السرور والغبطة بل الى الحصول على انتظام تام في حياتنا الانسانية يخلصنا من الاطاع الملطخة صفحات حياتنا المتعددة والمتتابعة

نحن يجب علينا شخصياً ان نبعد عن محبتنا لذاتنا وتعبدنا لشهواتنا . وان نتخلص من قيود حسياتنا الطماعة حتى نتمكن من ادارة امورنا بتوازن تام في جهادنا للحياة وهذا التوازن لا يحصل فقط بالمراسم والطقوس بل يحصل بان يتبدل الانسان قلباً وروحاً وان يملك نظراً صحيحاً جديداً الى الحياة وان يكون معيار الحياة حصل له تبديل كلي بان يصير الانسان انساناً جديداً فكما ان الانسان المضطرب في ابتلائهِ بمرض الصدر يخاف ويرتجف من اضعف الارياح ثم لما يتداوى ويشفى يجسر على مقابلة اقوى الارياح واشدها هكذا الانسان لكي يتمكن من

مصادمة هجمات جميع التاثرات السافلة ولكي يصبح متسلطاً حاكماً عليها عوضاً من ان يبقى اسيراً لها فانه يجب ان يشفى قلباً وروحاً وان يكون صاحب حياة جديدة وقوية وهذه مسألة مهمة جداً في حياتنا الدينية

وبالطبع ان الجهة المهمة في هذا الخصوص ليست المباحث النظرية بل التجارب الشخصية . ان جمهوراً من المعلمين والفلاسفة والانبياء قد اوصوا وعلموا كثيراً لاصلاح حياتنا الاخلاقية وتبديلها

لكن بما ان قطع مراحل الحياة امر مشكل وصعب وتجارب الحياة مركب خشن قد عجزت هذه الوصايا وتلك الاوامر عن تامين وتحقيق راحة القلب وسكون الضمير وكثيراً ما نحن ذواتنا قد ضللنا طريقنا وامسينا العوبة تتلقفها ايدي عواصف الحياة فيلزمنا اذاً الالتصاق والتماس بالاشخاص الذين شادوا في ذواتهم بنيان ذلك الانتظام الباطني وذلك التوازن الروحي والاطلاع على حياتهم الباطنية وايجاد علاقة شخصية لنا بهم

من شاء ان يكون اخصائياً في فنٍ ما لا يكتفي بمطالعة كتب ذلك الفن وعلومهُ بل يلتصق بفنان كبير ويدرس عليهِ عملياً وهكذا كما انهُ يجب على من يريد ان يكون صَنَعاً ان يتعلم على صنع كبير وليس فقط ان يلتهي بحفظ المتون والكتب كذلك يجب على من يريد اكتساب الشخصية الاخلاقية ان لا يكتفي بدرس وتتبع النظريات الاخلاقية بل زيادة على ذلك يجب عليهِ ان يصاحب ويدخل في صداقة ومرافقة من كانت اخلاقهم قدوة للصلاح وللحياة الحقيقية . وفي الحقيقة ان التوازن الاخلاقي لا يتكون بحفظ المتون ولا يوجد لهُ اكسير سري بل هو لا يحصل الا بالجهاد الجدي وبان يرى المرء بذاته جمال الحياة الروحانية ويشعر بها في نفسهِ

هوذا حياة السيد المسيح فانها من وجهة النظر هذه وباعتبار تأثيرها على الانسانية يليق جداً ان تكون مرشدة لنا في فهم الحياة ولتدقيقها . ان حياة يسوع في تاريخ الدين كانت اثراً اخلاقياً فاخراً في خصوص

اظهار هذا الانتظام الباطني

وفي الحقيقة ان تاثيرها كان عظيماً في تقوية المبتلين بضعف الاخلاق و بتنظيم حياة من كانت حياتهم مضطربة وغير منتظمة واعادة هولاء الى ميدان الحياة اقوياء اصحاء فان حياة يسوع من جهة التجربة الدينية والمجاهدة الاخلاقية حائزة على معنى اساسي وقيمة ثمينة جداً فبهذا الاعتبار كان من الضروري لنا في جهادنا الاخلاقي ان نتأمل في حياة يسوع ونتعلم منها قدسية الحياة الاخلاقية

كان الرب يسوع اكثر الناس ميلاً الى العيش في الصداقة الصحيحة الحقيقية فانهُ كان متواضع القلب ولطيفاً ولم يكن من حد لمودتهِ ومشاركتهِ الاخرين في حاسياتهم . لا شبهة بانهُ كما في هذا الزمان كذلك في ذلك الزمان كان يوجد كثيرون ممن يقابلون المعروف بالمعروف و يعاملون جيرانهم واصدقاءهم بالحسنى والملاطفة ولكن هولاء محبتهم ومودتهم ومشاركتهم للناس في بلائهم

منحصرة فقط باولئك الاصحاب والجيران وان بعضهم لم يكن يسرُّ من مصادقة العامة بل كان يكرههم وينفر منهم وبعضهم كان يكره غير المتعصبين لدينهم وينظر اليهم كما الى ملاعين حتى انهُ كان يتجنب الاجتماع معهم

وكذلك كان آخرون مسوقين بافكار ملية وجنسية يبتعدون عمن ليسوا من رايهم ويبغضونهم . والحاصل انهُ وان كان يوجد كثير من الاشخاص الحسني المعاملة غير ان دائرة محبتهم واشتراكهم كانت محدودة جداً

وبمقابل ذلك كان الرب يسوع يشارك كل الناس في عواطفهم مهما كانت جنسيتهم ومهما كان مذهبهم ومسلكهم وكان حبهُ القلبي لهم لا حدَّ لهُ نحو الذين جاءوا اليهِ وخاطب بعطف وحنو حتى اهل الدركات السافلة من الهيئة الاجتماعية وكان في كل حال مستعداً ومتهيئاً لاغاثتهم واية مدينة او قرية دخلها كان اهلها مسرورين وفرحين من معاملتهِ لهم . ان هدف حياتهِ ليس التامين على مقام اجتماعي او تاسيس فرقة مذهبية بل ايقاظ الناس

الغافلين عن القدسية الاخلاقية واعانتهم في جهادهم الاخلاقي

ان يسوع احب الناس جد المحبة لانهُ علم ان فساد الاخلاق هو السبب الاصلي لتعاسة البشر في جهاد الحياة وبانهُ يلزم لخلاص البشرية المضطربة ان يوجد للناس صديق محب حقيقي

في زمانه كان العلماء يتناقشون ويتناظرون كثيراً في شأن الله والدين وكانوا يريدون من ذلك جعل الناس متدينين اما هو فلم يدخل في هذا الجدل وذلك التعليم المطولين لكنهُ كان حيث وجد يعلم الناس ان الله هو حقيقة وانهُ ليس بعيداً عن الناس حتى لا يمكن الوصول اليه ولا الى معرفة محلهِ بل بالعكس هو قريب من الناس وهو اب لهم محب وشفوق. ولم تكن تعاليم يسوع وعواطفهُ كالخطب الرسمية المشبعة بالتكلف بل كانت بسيطة طبيعية صادرة عن صميم قلبهِ فمن كان يسمعهُ كان يؤمن من طبيعة الكلام وبساطتهِ بانه كلام الهي ويشعر من تلقاء

نفسه بانهُ ارتبط بالله برباط المحبة وانتقل في حياتهِ من ادنى الى اعلى لان مقدرة يسوع لم تكن في تبليغهِ الخلق تعاليم تحتوي على اسرار الهية ولم يعمل بهذه الواسطة في دعوة الناس الى الايمان . انما هو الف بين الشحيح الطماع والعبد المغدور و بين المتكبر المتعصب والخاطىء المهجور . ورای ان الواسطة الوحيدة للعيش في سلام هي بان يطهر الناس من اوساخ الانانية فير بطهم بالله

هو فهم وافهم ان الله يجب ان تكون بينهُ و بين جميع الخلق روابط محبة قوية وان الناس اذا اصروا على افكارهم وآرائهم الضعيفة بشأن الله فلا يمكن ان تكون بينهم و بينهُ تلك الروابط ولذلك قد اقتنع بلزوم افهام الناس وتعليمهم قدسية الله ومحبتهُ ولكن ليس بالاجبار والتهديد ولا بالفلسفة المنظمة ولا بالبلاغة التي تهيج عواطف السامع بل بالعيشة بين الناس والاختلاط معهم ومصادقتهم وكان في ذلك انهُ تمكن من تحبيب الله الرحيم الى كل الناس

ان يسوع احب مبغضيهِ انهُ كان يحسن ويحب

ويتقرب حتى الى الذين ردوا تعاليمهُ ولم يفهموها وحقروهُ ومن هنا نشأ سر تاثير يسوع على وجدان البشر وفي الحقيقة غيَّر وجدان البشر واناره وهل من سبيل غير تلك الى دفع الناس في حياة جديدة. وفي الواقع انهُ يمكننا ان نؤدب ونوبخ صغيراً لاجل خلق رديء ولكن لا يمكننا ان نخرج منهُ بالقوة ميلهُ للخصام الا بان نؤسس في قلبهِ الميل الى الخير والمحبة. يمكننا ان نحاكم الانسان لاجل عمل شر ارتكبهُ ونجازيهُ بالمجازاة المرتبة ولكن اذا اردنا ان نصلحهُ فيقلع عن مسلكهِ ورداءته فذلك يستحيل علينا ما لم نظهر لهُ اننا ما زلنا نعتبره حتى في ساعة سقوطهِ انساناً ونعطف ونشفق عليهِ فعندها نجذبهُ الى عمل الخير وترك الشر فهذا هو السبيل الذي سلكهُ يسوع المسيح وهو سبيل بسيط ولكنهُ عجيب النتائج فان الذين فقدوا التوازن في حياتهم قد عادوا الى الانتظام الطبيعي كسائر ابناء جنسهم وتساووا بهم

ولم يكن احد يقطع الامل من الانتفاع من قوة وقدرة

يسوع فقد كان يجدُّ بالمحبة الحقيقية فاذا خاطب انساناً اشعل فيه الشوق الشديد الى الصلاح وكرم الاخلاق فيفصل بنوره الصافي الحار مخاطبهُ عن الدناءة والاطماع ويوقظ العقول الغافلة في حياة الضلالة . فبهذه الطريقة البسيطة كم احدث يسوع من الانقلابات العظيمة المدهشة وكم بدّل بصورة عجيبة العلاقات البشرية

كان في ذلك الزمان في احدى القرى عشار مشهور بظلمهِ فقد اساء بسبب وظيفتهِ معاملة الكثيرين واستوجب بغض وحقد جميع مواطنيهِ ولم يكن فيهم من يريد ان يعاشرهُ ويتخذ لهُ بهِ علاقة فمرة مرّ يسوع من هناك واجتمع عليهِ خلق كثير وراى ان رجلاً يصعد على شجرة كانت هناك ليتمكن من مرآه . هذا الرجل كان ذلك العشار المكروه فوقف يسوع وخاطبهُ وتكلم اليهِ واغرب من ذلك انه اعلن انهُ سينزل تلك الليلة ضيفاً على هذا العشار فتعجب الناس واما العشار فان تعجبهُ كان فوق الكثير كيف ان رجلاً ملأت شهرة صلاحهِ العالم

يتنازل لمخاطبة رجل عادي مثلهُ ويحل ضيفاً في داره. ان ذلك العطف حرك في داخل العشار شعور الانسانية وبينما كان الخلق لا يريدون التعامل معهُ اظهر لهُ يسوع هذا الحب الخالص وتجاه هذه المعاملة العالية الكريمة التهبت روح ذلك الرجل السافل بشعور مقدس وشرع ينظر الى الحياة من وجهة نظر جديدة واقتنع حالاً بان عليهِ ان يعيش بعواطف انسانية شريفة وندم جداً على ماضي حياتهِ وعذبهُ ضميره فاعلن انهُ سيعيد الى من كان ظلمهُ بدل الواحد اربعة امثال وهكذا قطع علاقتهُ مع الماضي وارتبط بالمستقبل ونظر الى نفسهِ والى ابناء جنسهِ والى الله نظراً جديداً صالحاً

فمن هذا يظهر ان يسوع باشتراكه مع هذا الشخص المكروه بدون ان يبالي براي الناس فيهِ واحتقارهم اياه قد بعثهُ انساناً جديداً مفيداً بعد ان كان شخصاً مضراً للمجتمع ومنحهُ النظام في الحياة عوضاً من عدم الانتظام ونفحهُ ينبوع رحمة وشفقة في حياته التي لم تكن تعرف

الرحمة ان سر تأثير يسوع في نفوس الناس وانتصاره العظيم عليهم انما كان هذا مصدره . وهكذا فان الشخص مهما كان حقيراً وضيعاً يبتدئ يشعر ان الله قريب منهُ ولو في وضعيته الحقيرة وانهُ برحمتهِ العظمى يشترك معهُ ويشفق عليهِ ويعتقد ان جميع البشر هم ابناء الله وبدرجة واحدة لديه متساوون بالحقوق امام الوهيتهِ ويدرك انهُ في هذا العالم ليس العوبة في يد قوة مؤثرة مجهولة بل انه تحت ادارة وارادة اب شفوق محب للجميع وان جميع حادثات الحياة المتوالية انما تفيد وتخدم مبدأ الخير الحقيقي

وهكذا فان هذا الانسان تتغير وتتبدل اراؤه في الحياة ونظراتهُ اليها ويشرع باتخاذ علاقات جديدة مستندة الى اركان علوية وحقاً ان المسالة المهمة في الدين هي هذه المسالة : ان التعليم بان الله واضع قانون مطلق يجازي الخطاة والارشاد الى واسطة للنجاة من القصاص المرتب على الاعمال المخالفة قانونهُ او تصوير الله بانهُ موجود قاهر متسلط

والاجتهاد بايجاد شفيع يسكن عنا غضب الوهيتهِ وينقلنا من عذاب جهنم الى سعادة الجنة . ان هذه كلها ليست سوى امور تجعل الدين قشوراً فارغة من اللباب اما الجهة الهامة في الدين فهي التاثير على افكار رجل سافل امسي بعيداً جداً عن الانسانية ومهملاً لحاساتهِ الاصلية فاعادتهُ الى حالهِ الشريف العالي وايقاظ العواطف السامية الكامنة فيهِ وجعلهُ اهلاً لان يكون ابناً حقيقياً لله . اما هذا فلا يتم بالتهديد والتخويف بل بالمحبة وعاطفة الاشتراك مع الناس . وهذا ما كانت تصنعهُ حياة يسوع وعنايتهُ

تصوروا رجلاً سقط في البحر وجعل يتخبط بين الامواج وبعض اشخاص واقفين في الساحل فان هولاء لا بد لهم بازاء هذا الرجل من احدى ثلاث فاما ان ينادوه وينبهوه بانهُ اذا جاء الى الساحل في المحلة الفلانية فيمكنهُ ان ينجو واما ان يرموا لهُ بحبل فيتمسك بهِ ويساعده في الوصول الى البر واما انهم كما يعمل الاب

لخلاص ابنهِ والصديق المحب لخلاص صديقـهِ يلقون بانفسهم الى البحر وينقذونهُ من الامواج ويصعدون بهِ الى ساحل السلامة

ومن المؤسف ان كثيراً من الانظمة الدينية موقفها امام الخلق موقف القسم الاول من المشار اليهم في هذا المثل فانها تكتفي بالوصايا ولا تبالي قطعـاً بحالة ذلك المسكين الخطرة. وبعضها في الموضع الثاني من المثل فاصحابها يعلنون الوسائط التي يرونها مؤدية الى نجاة الغريق المسكين

ولكن ليس ولا واحد من هذه يفيدنا في الضيقات وتجارب الحياة الصعبة وفي جهادنا ضد الشهوات والغضب والحقد والطمع التي تتملك عواطفنا ولا في امورنا ومعاملاتنا الشخصية غير الموفقة وعند اضاعتنا جميع ما نملك وسقوطنا في اليأس والفقر وفي الزمان الذي تكون حياتنا في التهلكة ونحن في اليأس

اجل ان تلك الوصايا لا فائدة منها في هذه الاحوال

العصيبة بل الذي نحتاج اليهِ فيها هو ان نرى يداً قوية شفيقة رحيمة يمدها لاجل معاونتنا صديق يحبنا من كل قلبهِ ونفسهِ فيحصل لنا الشعور الحي الاكيد بانهُ يوجد روح عالية مستعدة للمفاداة بكل شيء لاجلنا ولمشاطرتنا مصائبنا فنجد بذلك الرحمة والسلوان وتعود الينا قوانا لان هذه وحدها تقدر ان تعطينا قوة . هذا هو مقام يسوع في عالم الانسانية

وبهذه الوسيلة كان لهُ النفوذ على قلوب الناس وبها نقل الناس من دركة التعاسة الى القداسة وذلك لانهُ كان للناس صديقاً حقيقياً قبل ان يكون اي شيء اخر

وبقدر ما كان يسوع معلماً حقيقياً للتعاليم الدينية ومثالاً حيًّا كاملاً للاخلاق الصالحة فقد كان صديقاً وفياً مستعداً كل في آن ان يحضن الناس ويضمهم الى قلبهِ ويقبلهم في حظيرته فاحرز في تاريخ الدين ذلك المقام الممتاز لانه وقف حياته على التحري عن الساقطين والانحدار اليهم ليرفعهم الى الاعالي

لا شك ان احر اشتياق داخلي واكبر احتياج يعانيهما الانسان هما الى مصالحة روحية وانتظام مع الله والناس في حياة سعيدة لان الانسان لا يقدر على العيش في ظلال الراحة خارج النظام الروحي حتى ان المرء في احوالهِ الظاهرة وعلى رغم كل وسائطه الفنية اذا لم تكن له في نفسه هذه السكينة تكون حياته قلقة مزعجة

ان التدين هو عبارة عن هذا الصلح الروحي وعن قيام الشخصية الانسانية وثبات توازنها . ان اعلى واشرف معنى لحياة يسوع هو جعله الانسان قادراً قوياً في جهاده الاخلاقي ضد شهواتهِ ورذائله وضلاله وتمكينه اياه من العيش في هذه الحياة الصعبة المتعبة بسرور وقناعة

في الواقع ان يسوع لم يظل محسوباً في درجة مفكر ديني بل اعتبر منبع قوة للحياة . انهُ قدر على المحافظة على التوازن في حياتهِ رغماً عن المعضلات والتجارب الجمة التي عاناها . وكذلك جعل هذا ممكناً للذين تبعوه وحسبوا من خاصتهِ . في الحقيقة ان حياة يسوع اصبحت منبع قوة

فائضاً ودائماً لحياتنا اليومية . انهُ صديق حميم لكل فرد مهما كانت طبقتهُ وصنفهُ

ان صداقته قوة كافية لمعالجة كل ضعيف الاخلاق . هو محب للكل في اي زمان ومكان . ومحبته مرساة حفظ وامان في انواء الحياة الهائجة بالدناءة والرداءة فالقلب البشري يجد هناك راحة ويحصل على اطمئنان وانتظام باطني وعندئذٍ يمكن للنفس ان تحافظ على التوازن الحقيقي في معارك الحياة — فهل يمكن ان يكون للجنس البشري اكبر من هذه السعادة واعظم من هذا السرور

مكتبة الاخلاقيات الدينية

الكتاب الثالث

اين هو السلطان الديني

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

ترجم عن التركية ونشر بعناية المطبعة الاميركانية

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٩

مقدّمة عامة

ان الحاجات المادية تشغل الناس في الامور الاقتصادية والاجتماعية فيعرض للافراد في حياتهم الذاتية وللملل في حياتها الاجتماعية كثير من المسائل المشكلة . وهذه المسائل التي تبدو لنا فنظنها اقتصادية او ادارية محضة هي في الحقيقة مبنية على اساسات خلقية وروحية

انما حل هذه المسائل المشكلة لا يتم الا في تجـدد خلقي روحي ولكي يكون الناس اكثر سعادة واوفر افادة في حياتهم الذاتية والاجتماعية وجب عليهم ان يتتبعوا من وجهة نظر جديدة هذه الاساسات الخلقية والروحية ويحققوا فيها لانها المسيطرة على امور الحياة

وغايتنا ان يحصل لنا الحظ والغبطة بان ندلـ على السبيل المؤدي الى اعلاء مستوى كل منا شخصيًّا وارتقاء بلادنا الى مستوى رفيع في الحياة متحرين الحقيقة من غير ما تحيز في هذه المواضيع الكثيرة الاهمية وهذه المبادي التي هي بناء حياتنا الذاتية والاجتماعية

اين هو السلطان الديني

ان من المباحث الدينية ايضاً مبحثاً اخر مهماً يجب التدقيق فيهِ لعلاقتهِ بنا وهو قضية السلطان الديني . فقبل المباشرة بشرحها وتفسيرها يمكن ان نوضحها بالمثل الاتي :

لو ان شاباً دُعي الى الجندية لكنا نراه يكتسي البزة العسكرية ويودع عائلتهُ واحباءهُ ويترك اشغالهُ ويخضع بكليته الى امر وارادة رؤسائهِ . فمنامته واقامته ومطعمه ومشربه وكل امور حياتهِ تمسي خارجة عن ارادتهِ وتابعة بصورة قاطعة لارادة واوامر من هم فوقهُ كذلك في الحكومات المطلقة فان اهاليها يخضعون بدون قيد ولا شرط للقوانين التي يصدرها الملك لانها فوق ارادة الاهالي وواجب عليهم اطاعتها والحكومة لا تسأل عن وضعها وهذه حال لازمة لثبات الحكم المطلق

فاذا كان خضوع الصغير للكبير شرطاً اصلياً في قيام الجندية ووجود قانون مطلق يمثل سلطة الحكم المطلق امراً لازماً لثبات الحكومة المطلقة

فهل كذلك يحتاج في الدين الى رئيس ذي سلطة ونفوذ كلمة والى دستور مطلق الاحكام يتضمن النظم للحياة ؟ ام لا يحتاج الى شيء من ذلك ؟ وهل يوجد ذلك ام لا يوجد ؟ وبكلمة اخرى هل وجد الدين لاجل تقييدنا بالسلطة الخارجية ؟ ام وجد لاجل تأييد حريتنا الشخصية ؟ هذا موضوع بحثنا الان

ان الناس منذ نشاتهم كانوا في جميع صفحات حياتهم وادوارها متأثرين بمؤثرات خارجية

ان تاريخ المدنية يروي لنا ان الناس ما زالوا منذ كانوا عشائر خاضعين لآمر عام ضمن ادارة مستقلة مطلقة حتى في الاديار والمكاتب قد اتبع الناس النظام الاستبدادي المطلق ومن ذلك نشأ في نفوس الرهبان والمعلمين الميل الى الحكم المطلق وساد التحكم حتى في اقدس دوائر

الحياة البشرية التي هي الحياة العائلية . وقامت على ذلك الانظمة المسلطة الرجل على المراة والاب على عائلتهِ . ومما يوجب الاستغراب ان ذات المحكومين بهذا النظام المطلق قد رسخت في نفوسهم محبة هذا النظام على مرّ الزمان كما رسخت في نفوس الفريق الحاكم وقد بات الكثيرون يعتقدون ان تعديل او تبديل هذه النظم يؤدي الى خراب المجتمع البشري . ولا يستثنى من هذه الحال احوال البشر الدينية فانهم بصورة مختلفة يعيشون ضمن ادارة وسيطرة السلطة الخارجية المطلقة التي يحسبونها نعمة كبرى اعتقاداً منهم بصدورها عن قوة خفية قاهرة . ويعدون اطاعتهم العمياء لاحكامها واوامرها سعادة عظمى

وعلى هذا الاساس شيدت الاعتقادات الدينية . بالله . والانبياء . والكتب المنزلة وتنظمت طغمات الكهنوت ومراتب الرهبان وسار كل الناس في الوجهات الاخرى من وجهات الحياة . وكثيراً ما اعتبروا ابسط سؤال عن هذا السلطان امراً ممنوعاً مستوجباً العقاب

ولكن التاريخ يدلنا على ان الفكر البشري كلما ارتقى وتقدم نحو الكمال يقرّب الناس من الحرية الشخصية التي هي هدفهم الاقدس و يجعلهم يجاهدون في كل محيط للتخلص من سيطرة هذا التسلط وتحكمهِ فيهم . وفي الواقع ان تاريخ المدنية قد سجل جهوداً وجهادات كثيرة بذلت في سبيل الحرية الشخصية وتوصلت تدريجاً الى الفوز بالخلاص من هذا التحكم وليست هذه النهضة الصادرة عن الابحاث العلمية وعن التعمق في العلوم والفنون التي احدثت في العصور الاخيرة انقلابات كبيرة واسعة في عالم الافكار — ليس هذا كلهُ سوى احتجاج على اتباع السلطان الخارجي المطلق وخلع نيره . فمنذ ذلك الزمن ما زال يحدث كثير من الابحاث والتحريات العلمية المرتكزة على اساس حرية الفكر والمطالعة وقد حصل منها فوائد عظيمة وترقيات سامية للبشرية . واما اليوم فالحرية الشخصية ورفض التسلط والاستبداد ليسا منحصرين في دائرة العلوم والفنون فحسب بل انهما شملا

القضايا الاجتماعية والسياسية وجميع صفحات الحياة واطوارها حتى انهُ لا يستثنى من ذلك الحياة الدينية لان هذه قد حصل لها قسم مهم من ذلك

ان الشخصية الانسانية هي بلا شك واحدة فالانسان الواحد لا يمكنهُ ان يعيش في بعض حياته حرًّا طليقًا وفي البعض الاخر اسيراً مقيداً . فكما انه يسأل بحرية وجراة عما يعتوره من الشكوك في احدى جهات الحياة . بكيف ولماذا . فانهُ هكذا بنفس الحرية والجرأة يسال عن الجهة الاخرى التي يعنّ لهُ السوأل عنها ومن ينكر ان كثيراً من الحقائق العلمية والقواعد الاجتماعية المعروفة كانت فيما مضى بقوة ذلك التسلط الخارجي غير ما هي عليهِ الان فبعد ان كانت بنظر الاقدمين ضلالة اصبحت اليوم حقيقة و كذلك ان كثيراً مما نراه اليوم وهماً وغلطاً كانوا يرونهُ يقيناً وصوابًا . والفضل باظهار الحقيقة هو لتلك الحرية التي بها حصل التدقيق والتحري

وهكذا هو الامر من جهة العقائد الدينية التي كان

الناس يعتقدون انها حقيقة راهنة مطلقة فان المفكرين والمحققين قد باتوا يتساءلون عن جميع ما يعرض لافكارهم من الشكوك و يدرسون وجوهها طلباً للحقيقة . فاضطرب من ذلك اصحاب السلطان الديني وخافوا على الدين وقاموا يدافعون بقوة عن معتقدهم وسلطتهم و يعلنون ان ابسط سؤال عن العقيدة يعتبر هرطقة و كفراً

فكان من طبيعة هذا التضييق ان الساعين للحرية والتخلص من السلطان الخارجي المطلق قد تجرأوا بسبب هياج اعصابهم على اعتبار الدين هذياناً والشك بهِ يقيناً . اجل ان هذه القضية قد اكتسبت في زماننا اهمية كما في عالم الدين كذلك في عوالم الحياة الاجتماعية فبات الناس من جراء ذلك بين حالتين لا بد لهم من اتباع احداهما فاما ان يدّعوا و يعتقدوا ان في الدين تأثيراً خارجياً وان الدين قائم بهذا السلطان المطلق او انهم كما هو في صفحات الحياة الاخرى ينكرون تاثير الدين الخارجي و يدّعون بطلان الدين وهكذا فان اصحاب الافكار المترددة بهذه

المسالة التي لها من كل جهة علاقة في حياتنا يرون انفسهم مجبورين على اختيار احدى الجهتين واتباعها فاما السلطان الديني الخارجي واما انكاره والتزام الكفر

ها المسألة تدور حوالي هذه النظرية فكيف يمكننا حلّ هذه المعضلة وما الموقف الرشيد الواجب علينا وقوفهُ امام الدين ؟ . ان الواسطة في كل امر تتعين بالنظر الى المقصد منهُ فلو اردنا مثلاً تعليم أحدٍ خاصة الماء وتركيبه الكيماوي فكما اننا نعطيهِ تعليمات عن الماء كذلك نوصيه بمطالعة دروس الطب والكيمياء في الكتب الخاصة فتحصل لهُ عن الماء معلومات كافية . ولكن الرجل الذي يريد ان يتعلم السباحة فالكتب الكثيرة المتضمنة نظريات علم السباحة لا فائدة عملية لهُ من مطالعتها . بل الطريقة الوحيدة لتعليمهِ السباحة هي تمرينهُ عليها بدخولهِ الماء والتمرين يعينهُ على العوم حسناً لان السباحة لا تكون بمعرفة خواصّ الماء بل بمعرفة العوم على وجه الماء فلا يوجد طريقة لتعليم السباحة غير التجارب الشخصية

وهكذا مسالة الدين فانها تضارع هذه المسالة
بناءً عليهِ كان اهم البحث عما اذا كان في الدين تسلط خارجي ام ليس . وفيهِ تحديد هذا من وجهة التدين مسالة تعيين وتوضيح ما نعنيهِ بكلمتي « دين وتدين » وما هو قصدنا وهدفنا من ذلك . فاذا حسبنا ان الدين عبارة عن مراسم وطقوس خارجية . او عن مجموعة اسرار . او منظومة اعتقادية وفهمنا ان التدين هو عبارة عن ممارسة تلك الطقوس والمراسم الخارجية حرفياً وتلقيح الافكار بوجه خاص بروح الاسرار الجاذبة وحفظ المنظومة الاعتقادية جملة جملة نجد ان النتيجة المنطقية لذلك هي انهُ يلزم طبعاً وجود الاحكام العمومية لتعيين تلك المراسم والطقوس نقطة فنقطة واحداث سلك كهنوتي لاجراء تلك الاسرار وقوانين ايمان لاجل تثبيت نظام المعتقد وكان من الطبيعي ايضاً ان يكتسب هولاء من ذلك قوة وسلطة قاطعة . وعندئذٍ يصبح لازماً وجود السلطان المطلق طالما ان عموم التنظيمات الدينية تبنى على هذه الافكار ولاجل تلك الغاية

واما ان لم يكن المذهب في الدين مبنياً على هذه الاساسات بل كان مؤسساً على الله وعلى حياتنا مع الناس وعلى الاستقامة في اطوار الحياة وعلى كون الغاية في الدين هي حصول الانسان مع خالقه ومع ابناء جنسه ومع قلبه وروحه في انتظام تام وصلح حقيقي فمسالة السلطان الخارجي في الدين تتخذ وجهة اخرى . وفي الحقيقة لو اننا استعضنا عن نفوسنا بالله وعن كبريائنا بخدمة الاخرين وعن العداوة لهم بالمحبة يعني لو اننا فهمنا الحياة بمعنى اخر واتخذت روح الانسان في الحياة موقفاً جديداً لكان التاثير الديني الخارجي ليس فقط غير لازم بل مضراً ايضاً . لان الدين في هذا المعنى لا يكون جزءاً من المعلومات الدينية بل يكون وجهة نظر جديدة للانسان في حياتهِ وموقفاً قويماً للمرء في اموره وهذا مما لا يحتاج الى سلطان خارجي ولا يستفيد منهُ . لان هذه الحالة ليست سوى تجربة شخصية وتجربة روحية ذاتية ولذلك كان بالامكان ان يراها المرء ويفهمها من ذاته و يتبدل بها روحاً وقلباً .

لان الحقيقة يجب ان تؤثر في الروح وان يرى المرء حياتهُ بنور جديد و يتخذ لنفسهِ من الحياة خطة جديدة فالواسطة الحقيقية الوحيدة للتدين الصحيح هي هذا البصر الداخلي والادراك والتجربة الشخصية . ان الانسان يمكنهُ دون ان يتاثر روحياً ان يعتقد باعتقادات ناشئة مع الزمان عن التعامل ولكن عندئذٍ لا يكون متدينا بل متعصباً وما التعصب الا نوع من الاسر حالة ان المعنى الحقيقي للدين هو ارتقاء الانسان رقياً متناسباً مع شرف الانسانية وتجدد الروح الانساني بحيث يصبح المرء حراً بكل معنى كلمة الحرية وهذه الحالة الشريفة الفاخرة لا تمتزج مع التعصب . بناء عليهِ فمن فهم الدين بالصورة الانفة الذكر مظهراً تسلطاً خارجياً طالباً من الناس اتباعه اتباعاً مطلقاً فقد منع الناس من التكامل الشخصي لانهُ يضع تحت الاكراه والاسر تلك الشخصية الانسانية التي يريد الدين بها الكمال والتكامل لان هذه الشخصية الانسانية في اي خصوص كان لا تتكامل الا بحرية الفكر والقلب

والروح . والدين لا يمكنهُ ان يلتزم الا هذه الطريقة . ان اصول السلطة الخارجية يمكنها ان تجعل الانسان صافي القلب بسيطاً ولا يمكنها ان تجعلهُ مومناً حقيقياً لان الايمان يكون بالاعتقاد الشخصي

فمن هذه الجهة يمكن تشبيه الدين بالفنون الجميلة حيث اناس كثيرون يرون صورة من صنع رسام مشهور كرفائيل مثلاً او يسمعون قطعة موسيقى لاعظم ملحن فيمتدحون جداً مما رأوا او سمعوا ولكن هذا الامتداح لم يكن منبعثاً عن تأثير الفن في نفوسهم وحصول ذوق فيهم للبراعة . بل لانهم كانوا يسمعون من غيرهم هذا المدح فأخذوا بشهرة الواضع وليس بجمال الفن فتظاهروا بالمدح . هذه الحال واردة تماماً في الدين حتى ان كثيرين يدخلون في المباحث الدينية الحارة المهيجة و يتعصبون للدين ولكن ليس لانهم فهموا الدين بمعناه الحقيقي ولا لان انتظام الحياة مسيطر في قلوبهم ولا لان نفوسهم مملوءة بحب السلام الحقيقي . بل لانهم هكذا سمعوا وتلقنوا

وهذا بالحقيقة ليس ديناً ولا تديناً . فان التغلب في اقناع الناس بتفضيل رسوم روفائيل على غيرها يجب ان يحصل بحملهم على رؤية الاشياء وتفهيمهم حقيقتها و بتذوقهم جمال الفن البديع حتى تكون لهم قوة ادراك جمال الصورة الحسنى والشعور الموسيقي فيقدرون عند ذلك على التفضيل والترجيح وهذا بتمامهِ ليس الا تجربة ذاتية وذوقاً باطنياً فلا يمكن ادخالهُ الى صور الاخرين بالاخبار وان قبلوه بهذه الحالة فذلك منهم تظاهر بغير الحقيقة

هكذا في الدين . فانهُ لا يمكننا ان نكره الناس على اعتناقهِ بالقوة ونفوذ السلطان الخارجي واذا اكرهناهم فالنتيجة تكون منهم رياءً ومنا تعصباً . ان الدين هو تمرن شخصي . ومسألة روحية ولا يَصل اليهِ الناس الا من طريق الاعتياد الذاتي والادراك الباطني

وفي هذا دون سواه يكون الدين الحقيقي والتدين الصحيح

والدين في هذا يستند الى قوة الادراك والبصيرة

الفطريتين في الانسان لانهُ يملك من طبعهِ استعداداً داخلياً لفهم الحقيقة وادراكها

بناء عليه فان وضع الانسان تحت تسلط وتحكم التاثير الخارجي ولو في اي موضوع كان . يفيد عدم الاعتماد على هذا الاستعداد الاصلي والاصيل الذي هو اغنى كنوز الانسانية واقوى وسائط تكاملها . لذلك وجب ان نعتمد على خاصة عقلية الانسان ونقدم لهُ الحقائق . او ليس المقصد من التعليم والتربية اعداد الناس الى ادراك الحقيقة ؟

فلو ان استاذاً نافذ الكلمة في احد المكاتب اخذ في تعليم الطلبة يقول لهم « هذا الذي قلتهُ لكم حقيقي لاني انا اعرف وانا اقول فيجب ان تحفظوه وان تصدقوه » بدون ان يعوّد الطلبة على فهم الحقائق بالتحري عنها بذاتهم . فهذا الاستاذ لا يقدم لنا شبيبة ذكية بل ببغاوات تحفظ ما لا تفهم . ويكثر عندئذٍ الضعيفو الادراك ويقل اصحاب الادمغة الكبيرة التي تكشف الحقائق وتتحرى

عنها وتعدم ذلك الذكاء الكاشف ما وراء الستور . هكذا هي الحال ايضاً في الدين . فالروح الانساني يملك الاقتدار على فهم الحق والحقيقة . والدين كان لاجل التامين على الانسانية الحقة ولاجل ايصال الانسان الى الحياة العالية ولا يكون الدين باجبار الناس على حفظهِ وتعلمهِ بالقوة والضغط الخارجي لان هذه الاصول لا تخرج لنا سوى المتعصبين الاغبياء مع ان الدين يصل الى هدفهِ في قلوب الناس بمخاطبتهِ النفوس والضمائر مع بقاء حرية ارادة الانسان الذي لا يكون متديناً بالرغم منه

فلو نظرنا الى الدين من هذه الجهة لتغير راينا في موقع الكتب الملهمة والانبياء والرسل . وعندها نقرأ الكتب الملهمة ونتبع اوامرها ونواهيها بدون شك ولا سؤال وذلك لا لانها احكام مطلقة اجبارية علينا بل لانها نور روحاني استنارت بهِ قلوبنا وحاساتنا العليا

ويصبح موقع الانبياء والرسل في نفوسنا ليس موقع قوم متكبرين آمرين متسلطين متطلبين منا الطاعة العمياء

بل موقع اصدقاء ورفقة . حائزين على الاهلية الكاملة ليكونوا لنا هداة لانهم كانوا مثلنا في الحياة . ورغماً مما ابتلوا بهِ من التجارب وما عرض لهم من المصائب فقد حفظوا في كل ذلك نفوسهم قديسين وبررة فاستحقوا ان يكونوا لنا مرشدين . وهذا الاعتقاد ليس فيهِ حطة من قدر الكتب الملهمة والرسل والانبيـاء بل بالعكس يرفعهم عندنا الى درجة عالية ولكنها متناسبة مع الشخصية الانسانية ويكون لهم في حياتنا الروحية اعلى مقام

اما اذا اتخذنا الكتب المنزلة دستوراً نافذاً في حياتنا ولم نطبق في معاملاتنا روح هذا الدستور بل حرفيتهُ فينتج من ذلك اننا بالنسبة لاخلاقنا واطوارنا نجرد انفسنا عن المسوولية ونحملها الى الكتب المذكورة فنرى ما ليس بجائز جائزاً ويطمئن وجداننا بان حرفية الكتاب تجيزه ولئن كان ذلك يريح الفكر موقتاً غير انهُ بالحقيقة يولد صدأً للروح وصغراً في الشخصية لان التدين الذي هو عبارة عن التكامل لا يتم الا بالشعور بالمسوولية

الشخصية الناشئة عن حركاتنا واطوارنا . ومن وجهة النظر هذه يتبدل كل التبدل ظننا بالله

فعوضاً من اعتقادنا بان الله هو مستبد قاهر نعتقد انهُ الاب القوي الشفوق المحب الخير لجميع المخلوقات ولذلك تكون طاعتنا لامره واحترامنا لهُ ليسا خوفاً من غضبهِ ومجازاتهِ بل لرغبتنا بالحصول على السعادة الحقيقية والسلام الرابط شخصيتنا الانسانية بالله والدخول معهُ في الانتظام ولاقتناعنا ببلوغ الكمال بواسطتهِ اقتناعاً صحيحاً صادراً من القلب والروح . ان الانسان مشابه لله الذي خلقه على صورته ومثالهِ ولذلك كان الله يخاطبنا بطريق الاقتناع وليس بالاوامر الميكانيكية مثل الجمادات فموقفهُ تلقاءنا ليس موقف الآمر المجبر الذي لا يسأل ولا يشفق بل موقف الاب الحنون المحب . فهو يريد منا المحبة القلبية عوضاً عن العبودية والصداقة عوضاً عن الطاعة العمياء فمن تعبد لله بهذه العقيدة وارتبط معهُ بعلاقات الاخلاص هذه يكن متديناً وذلك يعلي منزلة الحياة الروحية ويكمل الحرية

الشخصية دون اخلال بالشخصية الانسانية . ففي علاقاتنا مع الله يجب اكثر من كل شيء الاخلاص والوفاء لان اول شرط في الصداقة الحقيقية هو الاخلاص القلبي . والله لا يطلب منا شيئاً غير هذا فتسلط الله على حياتنا الدينية ليس تسلط الجبار المستبد بل التسلط الحبي القلبي

ولا يمكن ان تنكشف وتظهر الحياة الدينية بصورة اوضح من هذا ؟ ولاجلهِ كانت حياة يسوع باعتباره معلماً دينياً تستحق من كل الوجوه ان نتخذها مثلاً لنا وندقق فيها

ان الكتب الملهمة التي كانت في ذلك الزمان هي التوراة والمزامير وناموس موسى وكان بين يسوع وبين علماء اليهود فرق كبير في ادراكها وفهمها . اما هم فكانوا بكل دقة يقرأون الناموس و يحفظونهُ حرفياً و يعتنون كل العناية بتفسير كل كلمة وكل حرف منهُ ولكنهم ما كانوا يدركون روحهُ ومعناه الباطني بل كانوا بكل تعصب يطبقون اوامره ونواهيهُ نقطة فنقطة واما المدلول الحقيقي

لكلامهِ فما احاطوا به علماً. كانوا يقيمون مراسمهُ وطقوسهُ الدينية ولكنهم ما كانوا يهتمون بمعانيها الروحية ولا بمراميها المقدسة ولهذا كانوا بالظاهر متعصبين ومتدينين ولكن من الداخل كانوا قذرين ومتعجرفين. بالظاهر خدَمة الله وفي الداخل عَبدة شهواتهم. يؤدون الاعشار الشرعية ولكنهم في اخلاقهم كانوا طماعين وعباد مـال وكانوا يعتقدون ان الناموس الالهي واسطة لتسلطهم طيلة عمرهم وفي كل اعمالهم وكانوا لذلك يطبقونهُ حرفياً على اعمالهم ويكتفون بذلك من ايفاء واجبهم الديني واغتروا كل الاغترار بهذا التدين الذي جعلهم مرائين متظاهرين بما ليس في قلوبهم

وهكذا كانوا جدَّ متعصبين واسيريـ تعصبهم وافكارهم ولم يبقَ في حياتهم رائحة للاخلاص والوفاء وبعدوا جداً عن معنى التدين الحقيقي. فتلقاء كل هذا كان يسوع يطالع ايضاً بكل احترام ناموس موسى ولكنهُ كان يفهمهُ من وجهة مخالفة تماماً لما يفهمهُ العلماء

المذكورون . انهُ لم يكن يهتم بحرفية التوراة وكلماتها بل بمعانيها ومقاصدها الحقيقية وكان يطيع روح الاوامر واحكامها وليس مقتضى الفاظها وتراكيبها واما المراسم والطقوس فكان يعلق اهمية على اساساتها الروحية وليس على طريقة اقامتها وصورها

فبينما كان العلماء يشتغلون بتفسير الشريعة من ان السن بالسن والعين بالعين فمن كسر سناً يكسرون سنهُ ومن قلع عيناً يقلعون عينهُ ومن ليس لهُ سن او عين يطبقون فيهِ حرفية الناموس فكانوا بشغلهم هذا ومباحثاتهم في شأنه يهملون حقيقة الدين . فبينما كانوا مهتمين بكل ذلك غافلين عن الدين كان يسوع يعلم الناس و يشرح لهم ان المعنى الحقيقي لهذه الاوامر والنواهي هو وضع حدٍّ لانتقام الناس من بعضهم البعض وان امكن فرفع الانتقام تماماً من بين الناس

كان علماء اليهود يقولون بحرفية الناموس القائل لا تقتل و يعلنون ان القتل غير جائز ولكن على رغم هذا

التعليم فانهم كانوا حقودين على ابناء جنسهم ومبغضين لهم فلذلك لم يكن بالامكان التوفيق بين حكم الناموس و بين ما في قلوبهم

اما يسوع فانهُ كان ايضاً يفهم هذه الاوامر والاحكام بكل معناها الحقيقي ولكنهُ مع ذلك كان يعلّم ليس بمنع القتل فحسب بل بعدم جواز التفوه بكلمة ردية ضد الاخرين وبان الحقد والتغرض والعداوة هي ايضاً غير جائزة وممنوعة كل المنع . لذلك كان اليهود اتباعاً لاحكام التوراة لا يحلفون باسم الله . ولكنهم كانوا لا يرون بأساً من الحلف بحق السماء و بحق الارض و بحق رؤوسهم وهكذا كانوا في جميع معاملاتهم يحلفون ايمانًا كاذبة ولكنهم لم يكونوا يعتقدون ان ذلك خطيئة لانهم ظنوا انهم لم يتعرضوا لمخالفة الناموس بحلفهم باسم الله

اما يسوع فكان يعلم قائلاً انهُ لا يجوز لكم ان تحلفوا ابداً لا بالله ولا بالسماء ولا بالارض ولا برووسكم بل فليكن كلامكم نعم نعم ولا . لا

هم كانوا حسب الناموس يصومون ويصلون ويعطون زكاة ولكن ذلك منهم عن كبرياءٍ وغرور ورياء . اما يسوع فكان يعلم انهُ على من صام ان يغسل وجههُ لئلا يظهر للناس صائمًا وعلى من يصلي ان يغلق بابهُ ويصلي في الخفاء والله الذي يسمع ويرى يجازيه علانية وان على من يعطي زكاة او صدقة ان لا يدع يسراه تعرف ما عملت يمناه والحاصل انهُ بينما كان علماء اليهود يحرصون على تنفيذ احكام الناموس والكتاب حرفيًّا وكلمة فكلمة متعصبين لهذا الراي . كان المسيح يسوع بن مريم لا يعمل الا بالمعنى الحقيقي والمدلول الصحيح الباطني لمقاصد الكتاب والناموس وكلماتهما . فلم تكن التوراة في مذهبهِ مجموعة اوامر ونواهي خارجية لازمة الاتباع بل كانت دليلاً روحيًّا حقيقيا لمن يفهم قلبًا وروحًا مقاصدها ومراميها ويتبعها من كل قلبهِ ونفسهِ

ومن الفوارق الاكثر ظهوراً بين يسوع والعلماء اليهود الفرق في اصول تعليم الدين . اما هم فلانهم كانوا

يظنون انهم بوقوفهم على دقائق الشريعة وشواردها وغوامضها قد وصلوا لاعلى درجات التدين كانوا يقولون للناس في تعليمهم اصول الدين « ان مسائل الدين شيء لا يمكن عقولكم ان تفهمه . انتم لا تقدرون على ادراك اسراره وعلى الاحاطة بمعانيهِ . ان الدين مما لا نكاد نحن نفهمهُ بناءً عليهِ عليكم ان تصغوا الى قولنا وتطيعونا » وبمثل هذا كانوا يطلبون من الناس مطاوعتهم والخضوع لاقوالهم

اما يسوع فلم يكن يخطر لهُ في بال شيء من هذا التعليم . كان يخاطب ضمائر الناس ونفوسهم ويرغب ان يعتقدوا ويفكروا بدون تحيز ولا تعصب وبدون رياء بل بكل اخلاص وحكمة ومما يحلو ذكره عنهُ انهُ ما كان يريد ان يقول للناس متحكماً او مدعياً « انا نبي . انا رسول . انا المسيح المنتظر فاقبلوا كلامي » بل اعلن نفسهُ للناس معلماً الحقائق بكل بساطة وبكل اخلاص وبوجدان صافٍ كان يرغب اليهم ان يدرسوا الامور . ولم يكن

يستعمل البلاغة والفصاحة لجلب الناس اليهِ لانهُ كان يعلم ان البلاغة وان قدرت على جذب الناس اليهِ الا انها لا تبدل من حياتهم ولا تغير من اخلاقهم فكان بكلمات بسيطة ولكنها مملوءة بروح الحقيقة يخاطب نفوس الناس ويكلمهم

ان يسوع مع انهُ كان في مقدوره ان يصنع المعجزات ويخرق النظام الطبيعي سواءً في اظهاره علامات من السماء او على الارض لم يختر هذه الطريق بل استنكف عن سلوكها عندما سألوه آية لكي يعتقدوا بهِ . ان معجزة واحدة كانت تكفي لتركهم محتارين . ولكن ذلك لم يكن ليبعث في البشرية روح الخير وفكر الرحمة . يسوع لم يأتِ ليجمع حواليهِ امة كبيرة عن طريق العجائب والمعجزات بل جاء ليبدل من افكار الناس الشريرة بافكار صالحة ويمنح الحياة والرحمة والشفقة . لذلك راى ان الواسطة المفيدة لذلك هي مخاطبة ضمائرهم وقلوبهم

اما ما اجراه من العجائب والمعجزات فكان منهُ شفقة وحنانًا على من شفاهم واقامهم ولكي يملأ قلوبهم في معاملاتهم مع بعضهم رحمة وحبًا . واما هو فلم يكن مويداً ولا محبًا للظهور والسلطان والنفوذ . ولا حصل مثالاً لشيء من ذلك

ان يسوع كان يعلم عن ملكوت الله ويبشر بهِ معلنًا انهُ انما جاء لاجل ذلك . ولم يكن يقصد من هذا اعطاء الناس قوانين وانظمة جديدة مكلفًا اياهم باتباع احكامها فيكافأُون بالحياة العتيدة في عالم النعيم حيث يعيشون بالسرور والفرح بعيدين عن الغم والكدر والقلق انما كان يوصي الخلق بان يعيشوا مؤمنين بالله معتقدين بانهم اخوة لاب واحد مجتمعين تحت سقف الهي واحد في هذا العالم الذي هو بيت الله . فملكوت الله يعني ايضًا هذه الدنيا القديمة ولكن بشرط قبول الاعتقادات الجديدة بشان الحياة . ويعني ايضًا لزوم التعامل مع جيراننا القدماء ولكن ليس بالكره والبغض المتاصلين في نفوسنا بل

بالاخلاص والمحبة والاخوة الجديدة في ضمائرنا . يعني ايضاً امكان التزاحم في هذه الحياة والجهاد ومعاناة حل المشاكل والمعضلات في هذ الحياة مغتنمين من ذلك فرصة لكي نتغلب على المصائب بقوة الارادة وحسن الاخلاق عوضاً من استسلامنا للياس والقنوط والهوان — والحاصل ان الانسان مع محافظتهِ على علائقهِ السابقة مع محيطه يجب ان يعيش كأنهُ انسان جديد . وهذا الهدف السامي لم يكن يسوع يدفع الناس اليهِ بالجبر والشدة او بالتهديد والوعيد بغضب الاله ولا كان يجذبهم نحوه بقوة البلاغة وسحر البيان ولا بشيء من التسلط والنفوذ الخارجي كان يدعو الناس الى هذا الهدف المقدس . وهذا ما دل على حبهِ البشر حباً جماً حتى جعل نفسهُ فداء عنهم واظهر لهم طريق حياة جديدة وجلبهم الى خاصتهِ بالمحبة والشفقة فهذا هو اقتدار يسوع وهذه هي وسائطهُ وسلطانهُ ونفوذه

فسلطانهُ ليس سلطان قدرة عجيبة خارقة العادة

والطبيعة مستبدة بل سلطان صديق علوي مخلص وفيّ صافي النفس والقلب . لم يكن جائراً مستبداً بل سلطاناً محباً حبًّا قلبياً روحياً شفيقاً . فمن ذلك حاز يسوع اعلى موقع في تعليم الدين — ان يسوع حير العقول واقنع الضمائر بتعاليمهِ و باحترازه عن الاكراه مع كونهِ مالكاً القوة والسلطة اللازمتين لذلك و باستنكافهِ القطعي عن استعمال التسلط والتحكم مع كونهِ لهُ السلطة والتاثير التامّان . انــهُ مع كل ذلك كان في جميع الاحوال وتحت كل الشروط يوجه كلامهُ وخطبهُ ومواعظهُ الى قلوب الناس وضمائرهم ولكن بكل حنو وحب فاصبح مثلاً اعلى مالكاً قلوب الخلق وعقولهم

فهنا وفي هذه التعاليم كان سلطان يسوع ونفوذه في تاريخ الدين وهل من سلطان او نفوذ اقوى من هذا وابقى واقطع حكماً

ان البيان الساحر وقوة البلاغة والافحام قد تعجز يوماً امام اكثر منها سحراً و بلاغة وافحاماً . ان نفوذ

الاحكام ومقدرة القوانين والاعتقادات قد تتبدل مع الزمان باكمل منها. ان المعجزات والعجائب ذاتها قد ياتي يوم ان يحصل ما هو اعظم منها

ولكن سلطان الحقيقة والصلاح ونفوذ المحبة والشفقة يبقى سرمداً فلا يقل ولا يبطل ولا يعطل باحسن منهُ. ومن اجل ذلك لم يكن في الدين ولن يكون سلطان او نفوذ اقوى من ذلك

اذا كان القصد من الدين وهدفهُ تعزية الحزانى واقالة عثرات الساقطين وتشجيعهم واعادة امل الحياة الى صدور اليائسين واراحة المثقلين باعباء الحياة وتخليص اسارى الفساد والشر واطلاقهم احراراً في حقل الصلاح وجعل الظالم عادلاً وآكل مال اليتيم وافياً وهاضم الحق معيداً والملتهبة قلوبهم بغضاً وحقداً وعدواناً محبين حليمين. وبكلمة واحدة اذا كان هدف الدين جعل الانسان انساناً حقيقياً والعالم عالماً جديداً فلا يمكن في

الاديان ان يقوم سلطان غير سلطان المحبة والحلم والحقيقة والاخلاص

فالموقف الصحيح في هذه الوجهة النظرية لا يحصل ولا يكون باعتبارنا الدين منظومة عقائد نكره على اتباع اوامرها واحكامها اتباعاً اعمى . ولا يكون هذا الموقف ايضاً بمقاومتنا ومخاصمتنا الدين ظناً انهُ عبارة عن سيطرة خارجية كانت لزجرنا والتحكم بنا بل ان هذا الموقف القويم الصحيح يتم ويحصل باعتقادنا من كل قلبنا ان الدين هو الحالة الحقيقية في هذه الحياة البشرية وان ما يقدمهُ لها من الاساسات يجب ان نقبلهُ مدققين بهِ بخلوص نية وطهارة وجدان . لا شك ولا شبهة ان الميزة الاولى للناس عن سواهم هي محبتهم الحقيقة

ان اشرف واسمى معنى لكلمة التدين هو ايضاً المحبة للحقيقة واقتبالها واعتباراً لهذا نقول انهُ ليس التدين شيئاً ينافي الشرف الانساني ولا يعاكس الشخصية الانسانية وليس فيهِ ما يخالف ذلك

وهذا هو الكمال الانساني . لذلك وجب على كل
انسان ان يكون متديناً لانهُ من مقتضيات الانسانية

مكتبة الاخلاقيات الدينية

الكتاب الرابع

ما هي علاقة الدين بالمسائل الاجتماعية

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

ترجم عن التركية ونشر بعناية المطبعة الاميركانية

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٩

مقدّمة عامة

ان الحاجات المادية تشغل الناس في الامور الاقتصادية والاجتماعية فيعرض للافراد في حياتهم الذاتية وللملل في حياتها الاجتماعية كثير من المسائل المشكلة . وهذه المسائل التي تبدو لنا فنظنها اقتصادية او ادارية محضة هي في الحقيقة مبنية على اساسات خلقية وروحية

انما حل هذه المسائل المشكلة لا يتم الا في تجـدد خلقي روحي ولكي يكون الناس اكثر سعادة واوفر افادة في حياتهم الذاتية والاجتماعية وجب عليهم ان يتتبعوا من وجهة نظر جديدة هذه الاساسات الخلقية والروحية ويحققوا فيها لانها المسيطرة على امور الحياة

وغايتنا ان يحصل لنا الحظ والغبطة بان ندلـ على السبيل المؤدي الى اعلاء مستوى كل منا شخصيًّا وارتقاء بلادنا الى مستوى رفيع في الحياة متحرين الحقيقة من غير ما تحيز في هذه المواضيع الكثيرة الاهمية وهذه المبادي التي هي بناء حياتنا الذاتية والاجتماعية

ما هي علاقة الدين بالمسائل الاجتماعية ؟

من المسائل المهمة في المبحث الديني مسألة علاقة الدين بالاجتماع . فالدنيا تعاني اليوم اكثر مما في كل يوم جماً من المشاكل المهمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والملية وتتصادم بها وقد نشط الناس الى التحري عن حلّ دائم متين لهذه المشاكل الآخذة يوماً فيوماً بخناق المجتمع البشري وفي استغاثتهم هذه ولوا وجههم شطر الدين لانهُ المكلف اكثر من سواه بضمانة سعادة البشر وتساءلوا عما اذا كان الدين هو الطبيب الحقيقي الحاذق بالداء والدواء في هذه الحياة ومشاكلها المهمة . هوذا مسألة ايضاً من المسائل المشكلة التي تواجهها اليوم النظم الدينية هل للدين علاقة بالمسائل الاجتماعية ؟ ام ليس لهُ ؟ وان كان لهُ علاقة فما هي ؟ في العصور السابقة كان اكثر

الخلق يقولون بمبدإِ الحق للقوي وكانوا يعتصمون بهذا المبدإِ وعليهِ مالوا الى الحروب والمخاصمات وقد شاؤوا ان يصبغوا مبدأَهم هذا بصبغة مشروعة فادعوا بان الصلح والسلام بين البشر لا يتمان الا بالارتكاز على التحكم والتفوق ومن المؤسف ان تكون التجارب الكثيرة دلت على ان هذا المبدأَ المقصود به تأسيس السلم بين الناس قد اضرّ جدّ الضرر برفاههم وسعادتهم . فكم وكم من الامم قد خربت وخرّبت سواها بسبب هذا التفوق فالناس الذين هم بالحقيقة اعضاء جسم البشرية الواحد والمرتبطة صوالحهم كل الارتباط ببعضها لا شك انهم لا يقدرون على ضمانة سعادتهم الذاتية ما داموا عاملين على اضمحلال بعضهم . فمبدأُ التفوق هذا قد ظهر اليوم عجزه بما ترك وراءه من الضحايا والخرائب

ان قسماً من الناس ظنّ ان السبب الاصلي لهذا الاضطراب والخصام في المجتمع البشري هو عدم التساوي والانصاف في الاقتصاديات واعتقدوا بانهُ لو وضع اليوم

للاقتصاديات نظام يقلب الحالة الاقتصادية راساً على عقب ثم نفذ بالقوة يتم من ذلك اصلاح احوال البشر الاجتماعية ويضمن السعادة للناس . والواقع انهُ لئن كان اصلاح الاقتصاديات والماديات يؤدي الى بعض الفائدة الا انهُ نظراً لكون سعادة البشر الحقيقية ورفاههم الحقيقي يرتكزان على اساسات اعمق وامتن من الحاجات المادية كان تنسيق واصلاح الاحوال الاقتصادية من جديد غير مجدٍ في تامين السعادة البشرية وخصوصاً اذا ارَدْنا تطبيق هذا المبدأ بالجبر والشدة وقد ثبت من التجارب ان انفاذ هذا المبدإ جبراً قد جاء بالاضرار الوخيمة العاقبة عوضاً من الاصلاح العام المنتظر

ان الاصلاحات الحقيقية لا يجبر الاهالي عليها كاجبارهم على الاكتساء بالبسة محضرة مهيئة . ان التكامل الباطني والنمو الاخلاقي شرط للترقي الحقيقي

وكذلك قسم اخر من الخلق قد ظن انهُ يمكن تامين الصلح ودوامهُ بوضع القوانين الجديدة وعقد المعاهدات

الدولية ولكن بما انهم عجزوا عن تأليف نظام يكفل انفاذ المعاهدات واجراء احكامها نجد عند حدوث الاحداث والاضطرابات الكبرى والخلافات الدولية ان تلك المعاهدات وهاتيك القوانين لم تعد سوى قصاصات من الورق اغلى ما تساوي هو الرمي الى الازقة حيث تدوسها الارجل وهكذا تتبدد الامال بالسلم والصلح وتمسي هباءً منثوراً

ما من قوة تضمن تنفيذ المعاهدات سوى قوة الصداقة والصلح الحقيقيين الخالصة من اطماع الانسان النفسية والمرتكزة هذه القوة على الاخلاص قلباً وروحاً. اما الاحكام والمعاهدات والقوانين فلا تضمن لوحدها دوام الصلح

اما وجهة نظر الدين وتعليمه في هذا فهي انه يصرّ على الاعتقاد بأن المسائل الاقتصادية والسياسية هي في الاصل مسائل روحية وخلقية. وبان هذا

التشويش الحاصل في انتظام الحياة الاجتماعية هو في الاصل ناشئٌ عن التشويش الروحي والخلقي المتاصل في الحياة الشخصية وبان الحل الحقيقي الدائم لهذه المسائل كلها يمكن ان يؤسس على اساسات روحية واخلاقية قويمة

بناءً على ذلك ولاجل التكامل الاجتماعي يسعى الدين الى تبديل فكري وقلبيّ في الوجهات الروحية والخلقية وبهذه الوسيلة يصل الى اصلاح الافراد وبالتالي المجموع البشري

ان الدين في حل المسائل الاجتماعية المعضلة لا يعقد معاهدات ولا يضع لوائح قوانين ولا يحاول حل هذه المسائل بتلك الوسيلة. لانهُ يرى ذلك خارجاً عن حدود وظائفهِ . ولكن الدين يرينا ويدلنا الى المبادىء الصالحة التي يجب ان تبنى عليها المعاهدات والقوانين السياسية ويغرز فينا القوى المعنوية والاخلاقية التي لا بدّ منها لاجل ضمان القيام بالمعاهدات وحسن تنفيذها

والدين يؤمن بان هذه القوى المعنوية والاخلاقية لا تحصل للمجتمع البشري الا بالارتباط بالله تعالى الذي يعلمنا الدين عنهُ انهُ رب العالم . منبع الخير والبركة . حافظ القداسة والصلاح . فيشعر الناس بهذا الشعور ويتبادلون المحبــة والعطف بغضهم على بعض . والدين يعلمنا ان سعادة الانسان الحقيقية لا تحصل الا عن هذا الطريق

اننا لدى امعان الفكرة نجد ان وجهات نظر الدين هذه في شان اصلاح الحياة الاجتماعية هي في الواقع صحيحة ومصيبة . لو كان في الامكان الحصول على السعادة عن طريق القوانين والنظامات الاكثر كمالاً — لو كان بالامكان الحصول على حل المشاكل الدولية بعقد المعاهدات لوحده — لما كانت البلدان تتحول الى خرابات واطلال دارسة

انهُ من العبث ان نعتقــد بان الصلح والسلام بين البشر يحصلان بعقد المعاهدات بين الدول . او بوضع

القوانين والانظمة الجديدة او بتحديد التسليح او بتعيين الحدود بمعرفة لجان او بتجديد نظامات الكمارك والضرائب او بتنسيق ساعات العمل وتعيين اجور العمال الخ

ان القضايا الاجتماعية مرتكزة على ما هو اعمق واهم من ذلك . فانت لا يمكنك ان تعيد الراحة والسلام الى عائلة مملوءة بالفساد والوساوس ومتسلط عليها الحسد والشهوة . كذلك العالم فانه عائلة كبرى فاذا لم يحصل الاخلاص والوفاء والمحبة بين الملل والافراد فلا ضمان ولا ثبات للصلح الحقيقي . اما القوانين والنظامات فانها تعمل في ظواهر المسالة دون بواطنها فمن شاء ان يحقق وجود قوانين ونظامات صحيحة ويضمن امكان تنفيذها فعليهِ ان يعرف اسباب عدم انتظامها وعدم امكان تنفيذها ليتدارك ذلك

فاذا لم يَنمُ بين الملل شعور الاخوّة والمحبة المتبادلة فليست المعاهدات اذن سوى هدنة لاجل تحضير القوى

لاستئناف الحرب والخصام اذ انها لا تعتبر الا صلحاً موقتاً

ان كل المسائل الصناعية والاقتصادية والسياسية والملية وغيرها هي عبارة عن علاقات متقابلة بين الافراد فما دامت العلاقات المذكورة مرتكزة على الانتقامات الشخصية حيث يجهد البائع بان يغر المشتري فيبيع منه الرخيص غالياً والمشتري بان يخدع البائع فيأخذ منهُ الغالي رخيصاً والمستخدِم ان يغش العامل فيعطيهُ قليلاً من الاجرة لقاء كثير من العمل. والاجير ان يخاتل المستخدم فيعمل قليلاً لقاء اجر كبير

اجل ما دامت الحالة على هذا المنوال فليس بالامكان ان نحل بوضع القوانين المشاكل الاجتماعية المتأصلة بين الافراد او بين الامم

واما من جهة اخرى فاذا نما في قلوب الافراد شعور الاخوة فتغلّب الصلاح والحقيقة على الشعوب واصبح للناس في معاملتهم واخذهم واعطائهم اخلاق جديدة صالحة

عند ذلك يتسلط الصلح والسلام والعدل والانصاف بين الناس — تلك التي عجزت المعاهدات عن ايجادها

واما اذا عمل الناس لمنافعهم الشخصية وحصروا مساعيهم وتعاونهم في عرق او لسان او ارض او حزب او مذهب فعوضاً من تقرب البشرية وارتباطها يحصل التباعد والتنافر . لان الصلح الذي يعم كل الارض يتوقف على اخوة عامة وعلوّ في النفس وبعد في النظر

ونحن نعتقد انه يفيد جداً درس حياة يسوع والتدقيق في اعماله وارائهِ الاجتماعية وتفهم السبل التي سار فيها

كان قصد يسوع ان يوجد في الحياة البشرية تحويلاً وتجدداً متاصلين في النفس وان يبني العلاقات البشرية على اركان جديدة قوية فيحصل من ذلك بشرية جديدة ولكنهُ في سبيل الوصول الى هذا الهدف لم يصدر احكاماً غير انهُ تتبع اصول حل المشاكل بحصر السعي في دائرة الاخلاق واصلاح المجتمع والتاثير الحبي على

القلوب . فمتى درسنا حياتهُ من وجهة النظر هذه تستنير عقولنا فنفهم المسائل الحاضرة . كان في زمان يسوع كما هو الحال في زماننا الحاضر فرق واحزاب مختلفة متضادة المقاصد والمساعي فالعداوة التي كانت قائمة بين اليهود والرومان هي كانت اشد من العداوة الحاصلة في عصرنا بين العناصر المختلفة

يومئذٍ كان الرومان الوثنيون محتلين فلسطين ومستبدين فيها وهي تلك الارض التي كل تلة وكل وادٍ وكل سهل وكل جبل وكل ذرة تراب منها كان في اعتقاد اليهود مقدساً وكان اليهود يحنون الرقاب لسيوف اعدائهم . فهذا الموقف الذي وصفناه بهذه العبارة المختصرة يكفي لتبيين تلك العداوة المتاصلة في قلوب الامتين . تلك العداوة الابدية غير الخامدة نارها

الرومانيون ينظرون الى اليهود نظرهم الى امة عدوة كل البشر واليهود يحتقرون الرومانيين ويدعونهم بالكلاب الغير المختتنة . فاي اهمية تعلق على القوانين والدساتير

في شأن الائتلاف بين امتين كهاتين الامتين المتعاديتين

اما يسوع فانهُ نظر الى الامتين بعين محبة واحدة فكلاهما عنده اولاد الله وعلمهم ان ينظروا هم ايضاً الى بعضهم ويتعاملوا بهذا النظر المحب وكانت النتيجة انهُ تمكن من تحويل نظرهم الى جهة المحبة ونسيان تلك العداوة وقام في نفوس تلاميذه ومريديه من الامتين روح المحبة والاخوة في مقام العداوة . كما انهُ قد كان بين الاحزاب اليهودية عداوات واختلافات حادة حيث كان منهم حزب يدعى بالحزب الوطني من قصدهِ الاستفادة من الفرص والاجتهاد بتخليص البلاد من الغاصبين الرومان وكان هذا الحزب متعصباً لامتهِ حتى ان بعض افراده كانوا مفرطين في مطالبهم وغاياتهم الوطنية حتى امتنعوا عن اداء الضرائب والاعشار للحكومة

ومن جهة اخرى كان قوم من اليهود يتقربون من الرومان ويتزلفون لهم ويشغلون الوظائف لديهم ويجبون الاعشار ويلتزمون الضرائب وهؤلاء هم الذين كانوا

يدعون بالعشارين الذين كان من مصلحتهم دوام الاحتلال الروماني وكانوا في تحصيل الاعشار وجباية الضرائب من الامة يستبدون ويظلمون ويطمعون ويعذبون الناس ورغماً عن كون الحزبين المذكورين من الامة اليهودية الواحدة فان الحزب الوطني كان يكره ويبغض ويحتقر الحزب الثاني العشارين احتقاره للرومانيين وبغضهُ اياهم فكان لا يمكن حتى ولا في التصور السعي لتاليف ذات البين بين الحزبين لان مقصد كل منهما كان محو الاخر واضمحلاله

اما يسوع فانهُ في هذه المسألة ايضاً قد اتخذ سبيلاً لحل المسالة حلاً عجيباً ناجعاً

كان من تلاميذه واحد يدعى سمعان وهو من الحزب الوطني المتطرف وواحد يدعى متى وهو عشار من الحزب المتزلف فلما اجتمعا لاول مرة في حضرة المسيح يسوع ابن مريم قامت بينهما القيامة وكان من المنتظر ان سمعان يهجم على متى ويطعنهُ بخنجره الذي كان

يحملهُ . لكن يسوع علمهما وهذبهما فجعلهما اخوين ورسولين لهُ . فجلسا في مجلس واحد وعلى مائدة واحدة واكلا معاً طعاماً وشربا معاً شراباً وهل من وسيلة انجع من هذا لاجل التاليف بين هذين العدوين

ان الوطني المتطرف سمعان كان بامكانهِ ان يقتل متى العشار ولكن ذلك لم يكن كافياً لحل الخلاف بين الافراد والاحزاب بل يكون مسبباً لاشتداد العداوة . وفي الحقيقة ان اساليب الارهاب تزيد العداوة والحقد عوضاً من ازالتها لها واما اذا تهذب الناس وتعلموا وتعاشروا فتركوا العمل لمصلحتهم الذاتيـة وضحوا الشخصيات والخصوصيات في سبيل المصلحة العامة واستعاضوا من ذلك بالعمل المفيد للعموم وهجروا العداوة التي يثيرونها في القلوب على اقل مسألة طفيفة واستبدلوا ذلك بالمحبـة للاخرين . عندئذٍ وفي ذلك الوقت وحده يعم السلم والصلح بين البشر

جاء مرة الى يسوع شقيقان مات ابوهما واختلفا على

ارثهِ فاخذ احدهما يطمع بالحصول على قسم كبير من التركة ويهضم حق اخيهِ وكان الاخ المتضرّر متكدراً جداً من طمع اخيهِ فوقف في حضرة يسوع وقال لهُ : يا سيد قل لاخي هذا ان يقاسمني الارث . ومع كون حل هذه المسألة الارثية بسيطاً قانوناً والناس ينتظرون من يسوع حلها ولكنهُ راى ان تقسيم هذا الميراث بين الاخوين طبقاً للشرع والعدل لا يمنع عداوتهما بل قد يزيد حقد الغاصب وشرههُ فقال لهما «من اقامني عليكما قاضياً ومقسّماً» واستنكف من حل المسألة والقضاء بها فاستوجب بجوابهِ هذا حيرة الجميع فتساءلوا عن سبب الاستنكاف مع انهُ كان يعلم ان الغاية المقدسة التي جاء لاجلها هي الصلح والسلام بين البشر . لا شك ان حل هذه المسألة القانونية كان سهلاً جداً وان يسوع كان عارفاً بالشريعة ممكناً لهُ انفاذها . ولكن الشيء الذي فكر بهِ يسوع كان غير ما فكر الناس بهِ فانهُ كان يريد ان يصالحهما وان يجمع بينهما قلباً وروحاً لا ان يقسم بينهما الميراث شرعاً فيزدادا غيظاً وحقداً الواحد على

الاخر . وقصده هذا كان اهم نتيجةً من تقسيم المال بعدل فنظر الى هذين الاخوين وقال لهما كلمة بسيطة « جانبوا الطمع » اذ انهُ متى زال الطمع انحلت المسالة لان فكر المحبة والاخوة ينتج القسمة العادلة . واما اذا لم يكن هناك شعور اخوي فلا تزول من الناس المخاصمات والمنازعات حتى ولو نفذ القانون العادل بقسمة عادلة . ولا تحصل سعادة البشر الا بالاخوة

ان القوانين تضمن اجراء الحق والعدل ولكنها لا تنزع من القلوب الطمع ولا تولد فيها الاخوة

متى زال من الخلق الطمع وعبادة المال يحصل طبعاً قيام العدل واحقاق الحق وتعامل المال ليس بالغدر بل بالتضحية

جاء مرة رؤساء اليهود الى يسوع بزانية متلبسة بالجرم وقالوا لهُ اننا وجدناها تزني وان ناموس موسى يامر برجم الزانية فما تقول انت ؟

فاطرق يسوع راسهُ الى الارض خجلاً وسكت .

اما هم فلانهم يقصدون اجراء احكام النـاموس برجم المرأة. اعادوا السوال ذاتهُ فاضطروه الى الجواب . وبما ان القضية كانت في نظره ليست قضية اجراء الناموس برجم زانية مستحقة العقاب بل قضية تخليص المراة اولاً من حالها وثانياً من العقاب لاجل رفعها من درجة الذل والرذيلة الى مستوى الفضيلة والعفة ومن جهة اخرى قضية ايقاظ الشعور الانساني في قلوب اولئك الناس وارشادهم الى الفضيلة وهم اولئك الذين يرتكبون الزنى سراً ولا يقعون في ايدي القضاء و يظلون في الظاهر انقياء. اولئك المراؤُون الذين جاؤُوه بتلك الزانية وقد تكون مدفوعة للزنى بدافع غير ما يندفعون هم بهِ مدعين عليها متظاهرين بالعفـة ليخفوا عن الناس عيوبهم

فقال لهم «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها اولاً بحجر»

ثم عاد فسكت واطرق في الارض حياءً امام هولاء الذين لم تاخذهم شفقة على تلك الساقطة المسكينة

فماذا كان ؟ انهم وهم الذين لم يخجلوا من جرّ امراة في الازقة جامعين من خلفهم جموعاً من اولاد وكبار مدعين عليها الزنى انهم قد تحركت الفضيلة في قلوبهم من كلمات يسوع وخجلهِ ومن ذلك الجواب الكبير العالي واستيقظت في نفوسهم الحاسات الانسانية فاحمرت وجوههم خجلاً وانسحبوا من لدنهُ واحداً اثر آخر . فلما رفع راسهُ والتفت حواليهِ لم يجد منهم احداً غير المراة فقال لها . «انا لا ادينك فاذهبي ولا تعودي تخطئين»

انهُ حكم حكماً عادلاً لانهُ لو حكم برجمها لنتج انهُ محا من الوجود امراة وابقى المرائين الزناة سراً على ضلالهم ورذيلتهم . ولاجل ذلك اراد يسوع ان يطهر المراة من الخطيئة والمرائين من رياءهم ويوقظ فيهم روح الفضيلة وهذه كانت احسن صورة لحل هذه القضية

ان الاحكام الشرعية لا تقدر الا على تعيين العقاب على فعل الزنى ولكنها لا تقدر على تخليص الناس من الزنى

مع انهُ يلزم في قدسية العائلة وطهارة الضمير ان يكون الانسان قديساً روحاً وقلباً . والقداسة الاجتماعية والشخصية لا تحصل ولا تتحقق الا بهذ الوسيلة

في ذلك الزمان كانت البلاد تحت سيطرة الاحتلال العسكري في ادارة مستبدة مطلقة فكانوا يجبون الاعشار بدون حدّ وكانوا في سبيل ذلك يضطهدون الناس ويذيقونهم العذاب والظلم وكانت الاعشار والضرائب تزداد بازدياد المصاريف والاسراف في اقامة الثكنات العسكرية ومصاريف الجند والملاهي ومصارعة الانسان للحيوان . وكان يسوع يرى كل ذلك . وكان اليهود يمتنعون عن اداء الضرائب وتقديم الاعشار فيعصون الاوامر الصادرة اليهم من الحكومة . ولكن يسوع رغماً من وقوفهِ على هذه الحال لم يكن يتدخل لخلاص اليهود منها ولا شاطرهم هذا الراي . وعندما سألوه هل يجوز ان تعطى الجزية لقيصر قال اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ولما طلب العشار منهُ العشر والجزية ولم يكن لديه نقود

تكفي ارسل احد تلاميذه ليصطاد سمكة ويؤدي الواجب عليهِ للحكومة

هو كان يعلم ان اولئك اليهود لو انتصروا على الرومان ونالوا رغبتهم من اجلائهم عن بلادهم لاقاموا مقام الحكومة الرومانية المستبدة حكومة يهودية متعصبة عمياء وهذا ما لم يكن يراه مناسباً ولا كان يسعى اليهِ. لان هدفه في تعليمهِ ليس ازالة حكومة مستبدة لاقامة حكومة متعصبة ولا نصر ملة على ملة بل هدفهُ كان الصلح العام وتبديل آراء الناس بحق بعضهم البعض ونزع البغضاء من قلوبهم لنشر المحبة والاخوة في كل البشر. فبناءً على ذلك امتنع عن استعمال الوسائط الزجرية في اصلاح المجتمع وسعى لتبديل اخلاق الناس وتهذيبها

ان هذا التدبير المصيب الذي اتخذه يسوع لاصلاح المجتمع وتلك القداسة الذاتية التي كان يتحلى بها هو نفسهُ احدثا في الوجدان البشري العام تبديلاً لم يكن ممكناً حدوثهُ من قِبل اية قوة اخرى . انهُ لهذا المقدار كان

مؤثراً على المجتمع حتى راينا ان اليهودي الوطني والمفرط في تعصبهِ لوطنهِ والعشار والروماني الوثني غير المختتن يعيشون كلهم معاً عيشة الاخاء والمحبة

اولئك الاشخاص الذين كانوا حتى ذلك اليوم تتسلط في قلوبهم الانانية والبغضاء والعداوة والظلم قد انقلبوا الى اشخاص يعتقدون ان اقدس واجب عليهم هو محبة الآخرين وخدمة الآخرين واغاثتهم

هذا هو هدف يسوع وهذا هو قصده . وقد حصل . وهو لكي يكون مثالاً قد احب الجميع محبة لا توصف ولا تحد . وكان يقابل التحقير والاستهزاء بالمحبة والبركة ولم يستنكف من بذل حياتهِ فداءً عن الناس . لانهُ لا يمكن تأسيس الصلح والسلام الحقيقيين في العالم الا في حب الناس بعضهم بعضاً ولو في فداء الواحد الاخر بنفسهِ ان يسوع ظل محافظاً على هذا المبدإِ ومخلصاً لهُ

اما نحن فاذا تفحصنا اعماق قلوبنا من هذه الوجهة نجد ان ليس فيها ظلّ لهذه الصداقة ونرى اننا لا نفقه لها معنى صحيحاً حتى انهُ ليصعب علينا ان نعامل اخوتنا ومواطنينا معاملة الاخوة والاصدقاء فكيف بنا في معاملتنا سائر افراد المجتمع البشري اما دستور حياتنا فهو قائم على طلبنا مالاً فوق مال واخذاً دون اعطاء . واما يسوع فان المحبة والتضحية هما اساسان في حياته وركنان في تعاليمهِ . هو كان يحب الناس كافة غير ملتفت الى عرقهم او جنسهم او مذهبهم او وطنهم او مقامهم الاجتماعي . فكلهم كانوا في نظره اولاداً للاب الواحد السماوي فلا فرق لديهِ بين واحدهم والاخر . فكان يحب العشار المحتقر ويخالط السامري المتروك ويعود المجذوم المهجور لانهُ يعتقد ان اقدم طريق وانجع علاج الى شفاء المجتمع واصلاح البشرية المضطربة هي المحبة والشفقة

هذا هو مقام الدين وموقع تعاليمهِ في العالم الاجتماعي . ان الدين الحقيقي يرفع انظار الخلق من دركة الانانية

السافلة الى الاعالي ويوجهها الى الذات الجليل الاقدس المحب خير الجميع الشفيق عليهم . ويسوق الناس الى الافتكار والنظر الى المحبة والفداء والى الواجبات اكثر من الحقوق . ان الدين محق جدّ محقٍّ في نظريته هذه

الدين الصحيح الخالص من الغش هو هذا : ان تحب الرب والناس من كل قلبك ومن كل نفسك . فهو مرتكز على دعامة تبادل المحبة . لان القانون الطبيعي للعالم هو المحبة والانتظام . وما نراه في العالم من اضطراب وعدم انتظام فهو منبعث عن عدم ادراك الناس هذه الحقيقة وعن اتباعهم مطاليب الحياة اتباعاً حيوانياً . ونهاية جميع المسائل الاجتماعية هي مسألة « انا » « وانت » . فلو ان الخلق اعتمدوا في هذه المسألة على المحبة لحصل للعالم السكون والانتظام . وهذا ما يعلمنا اياه الدين فموقف المؤمن الحقيقي هو موقف المحب لله والناس والحياة . والتدين ليس سوى الحصول على روح المحبة والعمل بما تمليهِ علينا

ان اليأس ياخذ بمجامع القلب عندما يطالع المرء تاريخ الاديان فيجدها مشحونة بالاختلافات التي عوضاً من ان يمحوها الدين ويزيلها من بين البشر ويربط الناس بعضهم ببعض برباطات المحبة والتعاون والاسعاف قد فرقت بينهم بصورة انهُ لم يعد بالامكان ضم شملهم وعوضاً من ان يجعلهم متصلين بالسعادة والسلام قد امسى سبباً للمنازعات والمخاصمات المفجعة . وهذا هو الدافع بالبعض الى الاعتقاد بان لا فائدة ترجى من الدين . وان الطريقة الوحيدة لاعادة السلام والصلح هو ابطال الدين والغاء احكامهِ

ان هذه الحال لجديرة بان تدفع بكل متدين حقيقي الى التامل العميق والتروي بالمسألة نعم اننا اصبحنا مضطرّين الى اعمال الفكر وانعام النظر لكي ندرك المعنى الحقيقي الخالص للدين ومقدار فائدتهِ في اعادة الصلح والسلم والسعادة للمجتمع البشري . ان الدين هو من اعلى كنوز الفطرة البشرية الثمينة وهو عامل مؤثر

فيها فاذا فهمناه بمعانيهِ ومراميهِ الصحيحة وعملنا بموجب ارشاداته والهاماتهِ نجده عاملاً كبيراً قوياً لحل جميع المسائل المشكلة المختلف عليها الحاصلة بين البشر افراداً

الدين يمكنهُ ان يعالج الادواء الاجتماعية ويستاصل شافة عدواها بهذا العلاج العجيب الذي يوجد بدلاً من التنازع اخوّة وبدلاً من الطمع وفاءً وجوداً . وبدلاً من العداوة محبة . فاذا كان للبشر بارقة امل بحل هذه المشاكل فهي لا شك تكون في الدين الذي عنيناه بهذه النظرية

يقولون ان الدين يفرق بين البشر ونقول ان الدين الصافي الصميم يعلم الناس حسن الائتلاف وهو اقوى عامل لتنظيم المعاملات العامة وعقد الروابط الصالحة بين الافراد والامم . وبناءً عليهِ فان السعادة البشرية لا تحصل لنا بقيامنا ضد الدين بل بفهمنا الدين فهماً صحيحاً وباجراء احكامهِ باخلاص في معاملاتنا . ان ما يلزم ليس هو اقصاء الناس عن الدين وتبغيضهم لهُ بتعصب المتدينين

لمعتقداتهم . بل ان ما يلزم هو فهم المتدين ان الدين هو محبة الاخرين والتعامل معهم باستقامة وصدق وصداقة بحيث يكون الانسان مثالاً مجسماً لهذه الفضيلة

«احبوا بعضكم بعضاً كما احببتكم انا» :.

مكتبة الاخلاقيات الدينية

الكتاب الخامس

ما هو الايمان بالله

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

ترجم عن التركية ونشر بعناية المطبعة الاميركانية

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٩

مقدّمة عامة

ان الحاجات المادية تشغل الناس في الامور الاقتصادية والاجتماعية فيعرض للافراد في حياتهم الذاتية وللملل في حياتها الاجتماعية كثير من المسائل المشكلة . وهذه المسائل التي تبدو لنا فنظنها اقتصادية او ادارية محضة هي في الحقيقة مبنية على اساسات خلقية وروحية

انما حل هذه المسائل المشكلة لا يتم الا في تجـدد خلقي روحي ولكي يكون الناس اكثر سعادة واوفر افادة في حياتهم الذاتية والاجتماعية وجب عليهم ان يتتبعوا من وجهة نظر جديدة هذه الاساسات الخلقية والروحية ويحققوا فيها لانها المسيطرة على امور الحياة

وغايتنا ان يحصل لنا الحظ والغبطة بان ندلـ على السبيل المؤدي الى اعلاء مستوى كل منا شخصيًّا وارتقاء بلادنا الى مستوى رفيع في الحياة متحرين الحقيقة من غير ما تحيز في هذه المواضيع الكثيرة الاهمية وهذه المبادي التي هي بناء حياتنا الذاتية والاجتماعية

ما هو الايمان بالله

من الاساسات المهمة في امور الدين مسألة الايمان بالله . وليست اهميتها متكونة من مسألة وجود الله او وحدانيتهِ لانها مسالة لم يعد مجال للبحث فيهـا . فالله موجود وهو واحد وما انكار وجوده الا من السفسطة ولا الاعتقاد بتعدد الالهة سوى حمق وجهـالة وكل من لهُ مسكة من العقل السليم يقول بوجود الله ويسلم بوحدانيتهِ لذلك كانت القضية المهمة في هذا المبحث هي كيفية الايمان بهذا الاله الكائن الواحد هل تقتصر على الاقرار بهِ باللسان ام لهذا الايمان معنى اخر اكثر اهمية من ذلك الاقرار ؟

فنحن في هذه الرسالة سندرس هذه المسالة الاساسية بل اس الاساس فلنبحث اولاً في ما هو الايمان وعبارة عن اي شيء هو

ما هو الايمان ؟ ان توضيح هذا السؤال بالامثال يفيدنا و يساعدنا على فهم السوال والجواب

لنفرض اننا سمعنا في المدرسة من المعلم انهُ يوجد في افريقيا الوسطى جبل يدعى بكذا ثم قرأنا في كتاب الجغرافيا عن هذا الجبل حتى وعن نوع تربتهِ وصخوره وما يمكن ان يعيش فيه من النبات والحيوان وعن درجة ارتفاعه عن سطح البحر وجميع المعلومات الفنية المتفرعة عن وجوده و بعد الوقوف على هذه المعلومات نومن بصحة وجود الجبل المذكور ولكن هذا الايمان لا علاقة لهُ بشخصنا ولا بحياتنا لذلك تكون تلك المعلومات بنظرنا عارية عن الاهمية لانهُ سواء كان ذلك الجبل موجوداً ام غير موجود فنحن لا نهتم لهُ لعدم مساسهِ بحياتنا وشخصيتنا بشيء ولا ارتباط لهذه المعلومات بماهيتنا الانسانية الاصلية . فلا شك ان الايمان بالله اذا كان مثل هذا الايمان بوجود الجبل لا يكون ايماناً حقيقياً

الدين هو تاثير قدسي يتعلق بكلية شخصيتنا وحياتنا .

لذلك كان الايمان بالله ديناً هو كيفية اساسية شاملة حياة المومن وشخصيتهُ وهويتهُ واعماق قلبهِ وفرع حياتهوتصرفاتهِ و بالجملة جميع احوالهِ وخصوصياتهِ . ان الايمان بالله هو ان يودع المرء حياتهُ و يسلمها في الحال والاستقبال الى الله الاجل الاعلى

لنوضح المسالة بمثال آخر . لو فرضنا انني سمعت عن مستشفى عظيم متقن كل الاتقان في سويسرة وان هناك طبيباً نطاسياً حاذقاً يعالج المرضى وهذه سمعتها من صديق صادق ثم قراتها بكتاب الاخبار ثم طالعت عنها في الصحف فتحصل لي ثقة بصحة هذه المعلومات . ولكن وجود او عدم وجود ذلك المستشفى او ذلك الطبيب وصحة او عدم صحة تلك المعلومات لا اهمية لها عندي الآن . فاقول يمكن ان يكون ذلك و يمكن ان لا يكون لانه لا علاقة لي شخصياً بهِ ولا تاثير لهُ على حياتي اما لو اني اصبت يوماً بمرض واشتد مرضي يوماً عن يوم ثم رايت صحتي قاربت من التهلكة ولازمت فراشي مدة طويلة

فنصحني اطبائي بان اذهب الى سويسرة وان ادخل ذلك المستشفى ليعالجني فيهِ ذلك الطبيب المعروف فمن تلك الدقيقة تكتسب المسالة في نظري اهمية غير الاهمية السابقة واصبح مرتبطاً بذلك المستشفى وذلك الطبيب لان المسالة تعلقت بحيـاتي وشخصي و بالضرورة اتدبر طريقة توصلني الى هناك واتدارك الوسائل اللازمة للدخول اليهِ واسلم نفسي وحياتي الى يد ذلك الطبيب ومعالجته واطيع اوامره وكل الاوامر الصادرة من ادارة المستشفى وهذا امر واجب عليّ لاجل مصلحتي . حتى اني عند اللزوم ادخل طائعاً الى غرفة العمليات واستلقي على مائدة التشريح مسلماً نفسي للطبيب مقتنعاً بمهارتهِ وحذقهِ ومعتقداً باهتمامهِ بي وشفقتهِ عليّ . فهذا هو الايمان . اجل انهُ ايمان لهُ علاقة قوية متينة بنفسي وحياتي . والايمان بالله هو هكذا

في التجارب والاحن والاضطرابات والمصـائب يلتجىء المرء الى ذي الفضل والاحسان الحق سبحانهُ وتعالى

و يعتمد على عطفهِ الالهي و يفوض اموره اليهِ . وهذا هو الايمان اما الاعتراف باللسان فقط بوجود الله ووحدانيتهِ فليس ايماناً . بل يجب ان نؤمن بالباري تعالى فعلاً وحقيقة

واليك مثالاً آخر

انا ابن عائلة كريمة و كنت اعيش في احضان والديَّ وشفقتهما براحة ورفاه واكرمهما واطيع اوامرهما كل الاطاعة . ولكني بليت يوماً بمعاشرة رديئة وشرعت اسلك خفية عن ابي المسالك المضرة وصرت اقيم ليلاً نهاراً مع رفاقي المضرين وما طال بي الامر حتى اصبت بالسقوط الادبي والمادي فلم يبقَ في جيبي غرش واحد ولا في صحتي طاقة ولا حول و بدات افكر واخلو بنفسي وابكي وانتحب اسفاً وندامة وفكرت بالالتجاء الى صديق غني من اصدقائي فلم يمد لي يداً ولا اقرضني فلساً . فرجعت الى نفسي وذكرت والدي فهاجني التذكار وقمت من نفسي ومشيت اليهِ فوصلت الى امام باب دارنا

وطرقت الباب ولما فتح ارتميت على مواطىء قدمي ابي وقبلت الارض بين يديه وعرضت لهُ حالتي وماضيَّ ورجوتهُ السماح والاعانة واعترفت لهُ بذنوبي وسلمت حياتي ليديه فهاجت في قلبهِ الشفقة والحنان ونسي جميع ذنوبي وعانقني وقدم لي لباساً وطعاماً وشراباً وقبلني في داره ولداً تائباً . فاعتمادي على محبة وشفقة ابي وذهابي اليهِ هذا وايماني بانهُ يقبلني وينسى ذنوبي هذا هو ايمان بمحبة وحنو والد شفيق وفيّ لاني سلمت نفسي الى من اعتمد على استقامتهِ ومحبتهِ وكرمهِ والايمان الديني هو هكذا ان نعتمد على محبة وحنو الله ونعيش حسب ارادتهِ والايمان يعني ان بيننا وبين الله علاقة صالحة

ففضلاً عن العلم بان الله موجود وواحد يجب علينا ان نعتمد على قداسته ومحبتهِ وان نسلم ذواتنا لامره . وهذا هو الايمان الحقيقي

قد يحصل اني اتعرف على رجل فاعرف اسمهُ وعمره وعملهُ وعلمهُ وثروتهُ

وقد اعاشره وارافقهُ ليلاً نهاراً ويظهر كلٌّ منا للآخر حباً وتوداداً واكراماً وربما تعظيماً ولكن رغماً عن كل هذه الظواهر لا تكون لي به ثقة فلا اصدق قولهُ ولا اهتم لرايهِ حتى اذا طلب مني خمسة غروش قرضاً امتنع عن اجابة طلبهِ لاني موقن بانهُ لا يفي دينهُ فهل يكون بيننا في هذه الحال علاقة شخصية ؟ كلا

لان ما بين الاشخاص من مصاحبة ملاصقة لا عبرة بهِ ان لم يكن مرتكزاً على الثقة والصداقة ولا تقوم الصداقة الا على اسس تبادل المحبة والثقة

مثل هذه علاقتنا بالله . فانهُ يمكن ان يعرف المرء اشياء كثيرة عن الله ومعلومات صحيحة قد لا يعرفها سواه وقد يدرك من اسرار الدين ما لا يدركه اخر وقد يباحث الناس ويحاجهم بالمسائل الالهية ببراهين مفحمة حتى انهُ قد يكون من اعاظم العلماء اللاهوتيين ولكنهُ مع كل ذلك قد يكون في الباطن غير مومن ولا هو متكل على الله ولا مطيع لاوامره . فما هذا الايمان المزيف اذاً .

وما هي الفائدة من تلك المعارف والعلوم اللاهوتية

حقاً ان من تكون هذه حالهُ يكون منقطعاً عن الله ولا علاقــة لهُ بهِ . ان الايمان بالله يعني الاخلاص لله والاعتماد عليهِ اعتماداً قلبياً وليس الايمان معرفة اللاهوت واسرار الدين فحسب

ان لهذا الامر اهميتهُ في مباحث الدين من وجهة اخرى ايضاً وهي وجهة ما في الدين من فروض وواجبات وعبادات . فلو فرض ان متعبداً يصوم ويزكي مــالهُ ويحسن الى المحتاجين فبالحقيقــة ان اعمالهُ هذه مفيدة ولكنها لا تغني عن الايمان بالله

ان العامة تحسب مومناً كل من يتم واجبات وفروض الصوم والصلاة والزكاة ويداوم عليهــا ولو مهما كانت اخلاقهُ الذاتية فاسدة واعمالهُ مخالفة للدين

فهل في المباحث الدينية المتعلقة بالايمان اضعف من هذا الراي حيث يكتفي بان يقيم المرء الصلاة باوقاتها ويتم فروضها ويراعي طرق اجرائها بالمراسم الدينيــة

فيحسب مومناً حقيقياً و يغض الناس انظارهم عن اخلاقهِ حتى ولو كان نماماً كذوباً خسيساً طماعاً مرتكباً ظالماً جائراً على جاره ولا يلتفتون الى ضلالهِ بل يتخذون ظواهره الدينية معياراً لايمانهِ . ان هذا الزلل في الراي نتيجة الغلط في فهم الخطيئة والاخلاق . قد ظن بعضهم ان علاقتنا بالله تحاكي دفتر الحساب التجاري المسطر والمفصل فيقيدون فيهِ الخطايا في صفحة الديون والحسنات في صفحة المطالب فاذا ارتكب احدنا شراً خسر وان عمل خيراً ربح وازداد قدراً وطهراً . ان هذا الاعتقاد نشأ عن افتكارنا بالله بصورة رسمية فظننا ان علاقتنا بهِ مثل علاقتنا باحد جباة الضرائب الاميرية حيث يكون لهذا الجابي علينا ديون فيقيد لنا مدفوعاتنا اي حسناتنا ليحسمها من مطلوبهِ منا اي شرورنا

ان الرابطة بين الله والناس لا تكون هكذا حتى ولا هكذا تكون الروابط الشخصية لانك مهما احببت صديقك واحترمتهُ فان لم يكن لك في ذمتهِ ثقة فلا تعيش الصداقة

بينكما ولا تدوم . لانهُ اما ان تكون الثقة او لا تكون فان كانت قامت بقيامها الصداقة والعلاقة وان لم تكن الثقة فلا يمكن ان تتاسس الصداقة والمحبة ولا ان تبقى

أَلستَ ترى انهُ لو اعترى صداقة الشخصين فتور بالثقة تنحل الصداقة ويختل نظامها . أَوَ لا تعتقد معي ان هذا الانحلال او الاختلال شيء طبيعي . ان علاقتنا بالله هي عين هذه العلاقة . فالايمان هو الثقة بالله وعدم الايمان هو عدم الثقة . والخطيئة هي افساد ما في اخلاقنا من صفات ومزايا حسنة . ان السيئة ليست حادثةً مستقلة لوحدها بل هي علامة لفساد ما في النفوس وكذلك الكذب ليس فعلاً مجرداً بل هو صورة مظهرة ما في باطن الكذاب من نفاق كمن بلي بالجذام فان الكلوم التي تبدو على جسمهِ ليست المرض بل علامات المرض المتاصل في الدم الفاسد وهكذا نحن فاذا كانت اخلاقنا فاسدة فصلاتنا ومناجاتنا لا تكون صالحة . اذا لم تطابق معاملاتنا الناس بمبدإِ اخلاق الله فلا يمكن ان تعتبر عبادتنا في المعابد دليلاً

على ايمان صحيح واذا لم نوسس معاملاتنا مع الناس على الاخلاص والاستقامة فلا يصلح العماد او الختان اساساً لايماننا . لانهُ عند ذلك يكون الدين عبارة على شكل او صورة و يكون الايمان عبارة عن مراسم وطقوس ظاهرية

ان الله يطلب منا الاعتماد عليهِ والاخلاص لمباديهِ وعيشاً بقلب طاهر ولسان صادق . واما العلاقة بالله فتكون بالتقرب منهُ والايمان بهِ واما من كان اليوم صالحاً وغداً طالحاً . الان مستقيماً وغداً متعوجاً . مرة اخلاقهُ جيدة ومرة اخلاقهُ فاسدة . فهذا ليس مقبولاً عند الله الباري العظيم

ان الايمان الذي نعنيهِ هو ذلك الايمان المرتكز على الاعتماد على سجية الله تعالى اكثر من ارتكازه على الاقتناع بوجود الله ووحدانيتهِ . واما السجية فهي ليست ان يعمل المرء ما يشاء بل هي ما كانت حقيقتها الاخلاقية بارزة في الاخلاص للمبدإ

ان الله عليم وقـدير وحكيم . وهو يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء ولكن ليست هذه الصفات الالهية ما يدعونا الى الايمان بهِ بل بالاكثر صفاته الاخلاقية هي ما يدفع بنا الى الاعتماد عليهِ والايمان بهِ . فصلاح الله وعدم حبه الشرّ وعدم عمله الفساد وعدم تقلبه بين عملي الشر والخير بل عملهُ الخير المحض الدائم هذه الصفات هي الصفات القدسية التي لا تفارقه تعالى ولا ينفك متصفاً بها هي التي تدعونا الى الايمان به

ان الحق سبحانهُ وتعالى القدوس السرمدي ليس من صفاته ان يامر اليوم بشيء وينهي عنهُ غداً لانه مـا امر بشيءٍ الا وكان امراً مستقيماً وهو ثابت على استقامة اوامره

الله لا يجيز بزمن من الازمان الكذب والخداع والحيلة والرياء والظلم والعداء

ان من كان من الناس عالماً لدرجة ان دعي علاَّمة عصره لا يركن اليه ان لم يكن ثابتاً في خلقه ويحذر

الناس صداقته ومعاشرتهُ . وكذلك من كان قوياً قديراً ولكنهُ لا يملك عقلاً سليماً ولا قلباً كريماً ليحسن الاستفادة من قوته وقدرته فلا نعتمد على قوته ولا على قدرته

هكذا هي حالنا في قضية الايمان بالله فنحن انما نعتمد على الله لانهُ محب لمحض الخير ولانهُ عزيز وثابت على صفاته الحسنى والا فلوانهُ كان كبعض آلهة الازمنة السابقة قادراً قاهراً ولكنهُ سيء الخلق فماذا كان يفيدنا الايمان به عندئذٍ ؟ كان يمكننا ان نهلل لهُ ونعظم اسمهُ ولكن ما كنا نجسر على تسليمه حياتنا ونفوسنا . كنا نخاف منه ونطيعه خشيةً من ظلمه ولكن ما كنا نحبه ومثال هذا نراه في الحياة العائلية حيث نجد ان العائلة الصالحة تربط افرادها روابط المحبة والثقة فيعيش الزوج والزوجة والوالدان والاولاد برغد وسعادة لان كل واحد منهم واثق من محبة الاخر لهُ . وفي الغالب يكون رئيس العائلة اكثر من افرادها قوة وحكمة ولكن اصل انتظام

هذه العائلة ومصدر سعادتها هو الاعتماد على رب العائلة الذي استحقهُ من قلوب افرادها بحسن معاملتهِ لهم فتراهم كلهم يحترمون شخصيتهُ و يطيعون اوامره

ليس في الحياة العائلية خوف لانهُ لا يكون الا في العبودية فليس غير العبيد والاسرى من يخاف من سيده وهم انما يطيعون اسيادهم خوفاً وخشية من غضبهم اما في العائلة فالطاعة مرتكزة على اساس الثقة المتبادلة

الدنيا بيت كبير يسكنهُ الله والبشر عائلة كبيرة رئيسها الله . الله يطلب من كل واحد الطاعة لان الله يفكر بخير كل فرد من افراد العائلة ويحب كل واحد اما اذا اظهر الله لنا الشدة والقسوة مرة فذلك لانهُ يحبنا ويريد خيرنا وتهذيبنا . ان جحود كون محبة الله شاملة لكل العالم لهو الكفر والالحاد . وليس ارتكاب الخطيئة سوى عدم ثقة الخاطيء بالله . واما الكذب فهو عدم الاعتماد على سجية الله . ان الله يريد منا اكثر من كل شيءٍ الايمان بهِ يعني الثقة بذاتهِ الالهية وتسليم النفس لهُ . وبما ان الله

يفتكر ابداً بخيرنا وبالوقت نفسهِ هو مملوء حباً لنا وحنواً علينا فيمكننا ان نعتمد عليهِ في كل زمان وكل مكان وهذا هو اساس الايمان الوطيد

انهُ لو تحرينا على الايمان الحقيقي فيمكننا ان نجده بارزاً وظاهراً جلياً في حياة المسيح وتعاليمهِ ففي زمان المسيح كان الناس ماخوذين بظواهر الدين ومفتونين بها حتى كان الدين في مذهبهم مجموعة مراسم وطقوس . وكان الايمان عبارة عن اقرار بالله ولكن باللسان فقط فلم يكن نصيب للدين والايمان من الاخلاق . كان الناس في المعابد يعبدون ولكنهم كانوا يحسبون انهُ مهما كانت الصلاة طويلة ومكلفة تكون مقبولة عند الله ومرغوباً بها

اما يسوع فكان لقاء هذا يعلم ان العبادة المقبولة لا تكون بسبب التطويل والتكلف بل بكونها جدية وقلبية . ليس فيها تظاهر امام الناس بل مناجاة روحية صحيحة (مت ٦: ٥ و ٦)

في ذلك الزمان كان الناس يزكون اموالهم

و يتصدقون . ولكن ذلك لم يكن منهم الا بقصد الظهور بين الناس بمظاهر المحسنين على الناس . فما كانوا يعملون لاجل الله بل لاجل لفت النظر اليهم وتمجيد الخلق اياهم . فامام هذا التصدق الرياءي قال يسوع قولهُ المأثور (واما انتم فمتى تصدقتم فلا تجعلوا يسراكم تعلم بما فعلت يمناكم)

فما اعظم هذا الفكر الجدي الذي اعلنهُ يسوع عن صحة التصدق . كثير هم المتصدقون و بعضهم يتصدق بشيءٍ كثير من مالهِ ولكن متى نظرنا الى الحقيقة نجد انهم كانوا يطلبون بذلك مديح الناس وتمجيدهم والشهرة الباطلة والفخر العالمي

فهذا النوع من الصدقة غير مقبول عند الله

في عصر المسيح كان اليهود يفاخرون الناس بنسبهم الذي يتصل بابرهيم و يدعون انهم لاجل ذلك هم اهل ايمان فيعتمدون على شرف نسبهم وليس على شرف اخلاقهم

واعمالهم اما يسوع فكان يعلم قائلاً ليس الانتساب الى ابرهيم وحده يكفي لجعل الانسان اهلاً للايمان . بل ان التشبه بأبرهيم بطهارة الوجدان والعقيدة وتسليم النفس والحياة لله يجعل المرء اهلاً للايمان . لان اهلية الانسان للايمان لا تحصل من نسبه المتصل باحد الانبياء الكرام بل بطهارة القلب وصفاء الخلق

في ذلك الزمان كان الناس مفتونين بممارسة الطقوس وكانوا يعتنون بها جداً وباجراء المراسم الدينية ولكنهم ما كانوا يبالون بمعانيها الحقيقية فتلقاء ذلك كان يسوع يعلمهم بانه يجب تنظيف داخل الوعاء وليس خارجه . وان قلب الانسان اذا كان طاهراً فلا ينجسه ما يدخلهُ من الفم ولو كان غير طاهر لان ما يدخل الفم لا ينجس الانسان بل ما يخرج من الفم . فحقاً ان هذه الآية هي آية صحيحة تطابق ماهية الدين وحقيقتــهُ . اجل ان الطقوس والمراسم الدينية في كل مذهب هي مفيدة وجميلة ولكن الاعتقاد بان هذه الطقوس وحدها تكفي الانسان

للخلاص من فساد القلب وتجعلهُ طاهر النفس هو جهل وغباوة

فواجب على الناس ان تكون قلوبهم نقية . صافية . ونفوسهم طاهرة من ادران الحقد والحسد والغرور والشهوة

ان الايمان بالله لا يحصل الا بهذه الطريقة . ان من يؤمن ايمانًا جديًا صحيحًا بوجود الله ووحدانيته لا يمكنهُ ان يحمل قلبهُ حقداً ولا ان يظلم جاره واما الحقد وفساد الخلق والقلب فتلك نتيجة الكفر بالله وجحود وجوده . واما ظلم المرء جاره وخداعهُ اياه بالحيلة والخدعة فذلك ثمرة عدم الافتكار بالله

ان امثال هذه الاعمال السيئة هي بمثابة انكار الله . فالقلب المستنير بنور الله المضيء للجميع لا يبقى فيه ظلمة ولا سيئة . الايمان بالله لا يجتمع مع الظلم وفي العداء آن واحد ولا في قلب واحد . كما انهُ لا يخرج من الينبوع الواحد في آن واحد ماء عذب مع ماء اجاج

ان المسيح حارب خصلة الرياء اكثر من محاربته باقي الخصال . لان الناس كانوا في زمانه اعتادوا في حياتهم على الرياء والخداع . حتى انهم لم يعودوا يرون باساً في استعمال رياءهم في العبادة امام الله الباري فكانت دواخلهم تناقض ظواهرهم ونواياهم غير كلامهم واعمالهم غير اقوالهم فبينما يعلنون باللسان ايمانهم بالله ويصلون لهُ كانوا يعملون اعمالاً تدل على افكارهم وجود الله . فهذا هو بلا شك الرياء الديني

اما يسوع فعلم كثيراً ضد هذا الرياء الديني ونبه عن مخالفتهِ للدين واعلن ان الله يطلب منا صفاء القلب واخلاص السريرة وقال لنا انهُ يجب علينا ان نعتمد على الباري سبحانهُ ونتوكل عليهِ باخلاص واعتقاد وطيد اعتماد الولد على والده واخلاصهِ لهُ . وفي هذا المعنى نفسهِ جاءَ الانجيل مصرحاً ان الله اب وبمعنى الابوة هذه فهم يسوع الدين وعلم بهِ وعاش عليهِ وتعبد . ونحن نرى الايمان الحقيقي واضحاً جداً في حياة يسوع . فان حياتهُ من وجهة

النظر هذه كانت انموذجاً مطابقاً للايمان الحقيقي ان حياة المسيح من جهة الايمان بالله هي بالحقيقة اشرف حياة واقوم سبيل

معجزات يسوع وعجائبهُ حيرت العقول ولكن اعظم شيءٍ في حياتهِ هو ذلك الايمان بالله وتلك السجية السامية المنبعثة عن هذا الايمان حتى برزت شخصيتهُ اعظم المعجزات . انهُ كان اعظم رجل مخلص للغاية السامية التي يتبعها وكل انسان اذا اتبع في حياتهِ غاية يصادف صعوبات جمة في سبيل الوصول اليها وعلى قدر اهمية تلك الغاية تكون اهمية العثرات والمشاكل التي يصادفها . لاجل هذا صادف يسوع المصاعب الكثيرة العسرة في سبيلهِ الى المبدإِ السماوي العظيم الذي كان هدفهُ . لا ننكر ان رجالاً عظاماً كثيرين يتبعون مبدا عالياً و يثبتون في سيرهم وراءهُ ولكن المشاكل والمصاعب اذا تجاوزت حدها تجبرهم على الانحراف عن مبادئهم واما في حياة يسوع فاعظم معجزة هي انهُ كان كلما صادف صعوبة في سبيل املهِ ازداد

ثباتاً ورسوخاً في مبداه فلم ينحرف قيد شعرة عن سبيلهِ وظل في كل حال وزمان وتحت كل الصروف . صادقاً لهدفهِ الالهي فما نكث لنفسهِ عهداً ولا تمكنت الاضطهادات والمضايقات من ان تحيده عن مبداه فلم يوافق معارضيهِ ولا تساهل حتى ولو قليلاً بتعاليمهِ ولا انحرف عن الحقيقة ولو انحرافاً جزئياً موقتاً

اتبع يسوع هدفاً سامياً سمويا وظل سائراً في سبيله حتى النهاية . مرة تعجب الناس من معجزاته فارادوا ان ينادوا بهِ ملكاً عليهم ولكنهُ بالحال اختفى من بينهم لانهُ لم يكن يريد عيشة الملوك وعظمة القياصرة اي ان يكون اعلى من الناس ومتحكماً فيهم بل كان يريد ان يعيش معهم ويرتبط بهم برباط الانسانية . انهُ جاء الدنيا لكي يخدم الناس وليس ليكون عليهم ملكاً وحاكماً . ما كان يرغب بان ينكل بهم بالقوة والقهر ولا يحب العنف والجبر بل على عكس ذلك كان يريد ان يستميل قلوب الناس اليهِ باللطف والمحبة . ولاجل ذلك لم يكن ممكناً ان يقبل الملك والتعظيم

والتسلط . انهُ كان يريد ان يكون انساناً بين الناس ومخلصاً للساقطين وصديقاً للسافلين وهكذا كان يريد ان يعيش معهم لاجل خلاصهم ولهذا الخلق الكريم دعي بصديق السافلين والخطأة

وانهُ وان كان بمقدور يسوع ان يرقى اوج المناصب الزمنية و يعلو ذرى بروج العظمة والابهة و يمتلك ثروة طائلة وشهرة ملوكية وان يظهر للناس الجبروت والسلطة والعنف والشدة الا انه لم يكن ليرغب بشيءٍ من ذلك ولا يميل اليهِ . حتى انهُ لم يعامل اعداءه واخصامه بشيءٍ من التهديد والعنف وانما كان اكبر وامضى سلاحه ضدهم الصلاح وهذا كان اقوى قوة حقيقية ولم يعتمد الا على الله فكانت جميع اعماله وتصرفاتهِ واطوار حياتهِ مرتكزة على هذا الاعتقاد وهذا الاساس

ان حياة المسيح كانت وثبة جريء الى الايمان بالله لان الاخرين كانوا يقولون ان الله موجود ولكنهم كانوا يعيشون كأن الله ليس موجوداً . اما يسوع فسلم كل

حياتهِ لله لدرجة انهُ لم يستند على شيءٍ سوى الباري سبحانهُ وتعالى . والدليل البارز على هذه الحال نجده في ميتتهِ فان ميتتهُ كانت تمثالاً مجسماً للايمان بالله وهيكلاً ابدياً للاخلاص للحقيقة

هو كان يحب الحقيقة و يتبعها دائمًا . وفي النهاية قدم نفسهُ فداءً عن الحقيقة . انهُ كان بامكانهِ ان ينحرف عن الحقيقة ولو موقتاً و يتفق مع اخصامها . ولكنهُ كان يعلم انهُ لو عمل ذلك لكان جعل ذاتهُ مغلوباً من تلقاءِ نفسهِ واضاع ذاته . فلم يكن من حقهِ اذا ان يمانع بقوة او شدة . لانهُ كان يُعلّم الناس ان يحب بعضهم بعضاً وقد جاء ليكون لهم مثال محبة وشفقة . انهُ جاء ليعطي الناس الحياة وليس لينكل بهم ويمحوهم من الوجود . فقال احبوا اعداءكم . باركوا لاعنيكم . ومن كان هذا مذهبه وتعليمه فكيف يمكنه ان يمطر اعداءه ناراً وحرباً

ان كثيراً من الناس ينتقدون كيفية موت يسوع ظانين انها لا تتفق مع قدره ولا تليق بشرفهِ فيموت

مصلوباً متألماً · مع ان موته هذا كان تمثالاً مقدساً لاعلى حالات الاخلاص للمبدإِ والغاية · ان عظمة يسوع الحقيقية تظهر في ايمانهِ السامي بالله واليوم نرى ايضاً كل من يريد ان يبقى مخلصاً لمبداه تكون حياته مملوءَة بالصعاب والآلام · جربوا ان يكون لكم مقصد سامٍ وهدف عالٍ وان تتخذوا لكم مبدأً في الحياة وان تخلصوا للحقيقة وان تعيشوا بلا رياءٍ ولا مداهنة · فانكم ترون انكم في الحال تظهر لكم الصعوبات ويشرع الناس يتعدّون عليكم ويعاكسونكم وتقع عليكم العذابات والالام والفقر والحاجة · هكذا في الايمان بالله فانه ليس سوى جراة على الحياة بطهارة ونزاهة رغماً عن الاحوال المهلكة المؤلمة

ان الايمان بالله هو المفاداة بكل شيءٍ لاجل المحافظة على الاخلاص للحق والحقيقة · وهذا هو بوثقة الايمان

فليكن ايماننا بالله صافياً حقيقياً سرمداً

مكتبة الاخلاقيات الدينية

الكتاب السادس

الحكم على الطبع والنفس

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

ترجم عن التركية ونشر بعناية المطبعة الاميركانية

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٩

مقدّمة عامة

ان الحاجات المادية تشغل الناس في الامور الاقتصادية والاجتماعية فيعرض للافراد في حياتهم الذاتية وللملل في حياتها الاجتماعية كثير من المسائل المشكلة . وهذه المسائل التي تبدو لنا فنظنها اقتصادية او ادارية محضة هي في الحقيقة مبنية على اساسات خلقية وروحية

انما حل هذه المسائل المشكلة لا يتم الا في تجـدد خلقي روحي ولكي يكون الناس اكثر سعادة واوفر افادة في حياتهم الذاتية والاجتماعية وجب عليهم ان يتتبعوا من وجهة نظر جديدة هذه الاساسات الخلقية والروحية ويحققوا فيها لانها المسيطرة على امور الحياة

وغايتنا ان يحصل لنا الحظ والغبطة بان ندلـ على السبيل المؤدي الى اعلاء مستوى كل منا شخصيًا وارتقاء بلادنا الى مستوى رفيع في الحياة متحرين الحقيقة من غير ما تحيز في هذه المواضيع الكثيرة الاهمية وهذه المبادي التي هي بناء حياتنا الذاتية والاجتماعية

القوى الكامنة في الانسان

فطر الانسان مجهزاً بقوى كثيرة كبرى فالجنين مجموعة قوى عجيبة مملوءة بطبائع خفية . وهو يشبه بذور الشجر فكلما كبر الطفل انكشفت قواه وظهرت اثمارها . فالشاب في الثامنة عشرة او العشرين من عمره يكون جسمهُ وفكره وروحهُ في حالة الفوران مثل القدر تجيش على النار ماؤها فيرفع البخار غطاءها طلباً الانطلاق والتوسع

والرجل الذي في سن الكمال تظهر فيه طبيعة الثبات والمتانة والحنكة فلا يهيجهُ اقل شيءٍ ولا يندفع في اي مهب اهواء حتى انهُ لو جمع قواه كلها على موضوع واحد تمكن من القيام باعمال عظيمة . والحاصل ان الانسان سواء كان طفلاً او صبياً او يافعاً او كهلاً فهو في كل حال مجهز بقوى عظيمة واستعدادات كثيرة

الحكم على النفس

واهم امر في امور الانسان هو احسانه ادارة هذه القوى والاستعدادات وضبطها . وهذا ما نسميهِ (الحكم على النفس)

القوة العظيمة التي في بطارية كهربائية لولا احسان الادارة والضبط كانت تبعث ناراً محرقة تخرب مدينة . والقوة الكبيرة التي لمياه النهر يستخرج منها منافع جمة فتدير دواليب المعامل وتسقي الزرع ولكن هذه القوة المفيدة اذا لم نعتنِ بها وبضبطها واصلاح مجاريها فانها تطمو على القرى والاراضي وتحدث اضراراً جسيمة . وهكذا هي الطبائع والقوى الكامنة في الانسان المعدة لكل دور من ادوار حياتهِ . ففي جسم وروح وفكر الانسان طبائع وقوى كثيرة عظيمة بامكانها ان تخدم المجتمع خدمات صادقة سامية ولكنها ان لم تكن تحت النظام والضبط تنقلب الى اشر آلات مخربة ولذلك كان الحكم على النفس اهم مسألة

تعرض للانسان في كل دور من ادوار حياتهِ حتى انها بالحقيقة مسألة حياة الانسان او مماتهِ

في النزاع الدائم بين الطبع وما يتهدده من اخصام

الانسان معرّض جسماً لهجوم الامراض والميكروبات وهكذا ايضاً معرّض فكراً وروحاً الى ميكروبات شريرة خطرة وربما تكون الاعداء المهددة الجسد اقل ضرراً واخف خطراً من الاعداء التي تهدد حياتنا الروحية . لان هذه الاعداء الاخلاقية التي تهدد الطفل والشاب والكهل الرجل والمراة الكبير مثل الصغير هي تحيط بهِ في كل وقت وفي كل حال فاذا تركناها وشأنها بلا قيد ولا شرط ولا ضبط لا تزول بل بالعكس تبقى وتنمو فترمي بالمرء الى التهلكة والخراب لذلك وجب ان نجـدّ بمحاربتها وازالتها

من الطبيعي ان يقع الانسان في حياتهِ في بحران اخلاقي وقد اصيب بهذا الاضطراب اعظم الناس واقدرهم ارادة . ولكن المسألة الاصلية هي الموقف الذي نقفه امام

ذلك · والاتجاه الذي ندفع اليهِ ارادتنا

الخلاصة ان الطبع هو شيء يمكن حفظه بجهاد حقيقي · وليس مِنْ ظفرٍ من دون حرب · فظفر الطباع لا يتم الا بحرب اخلاقية

ليس برجل كبير ذلك الذي يندفع مع اي تيار ويميل مع اي ريح ومن كانت هذه حالهُ فليس بذي اخلاق · لان الانسان المحارب لاجل الاخلاق هو ذلك الثابت في ساحة الحرب العظيم القوي وهذا يظفر بالطبع الصالح فلذلك وجب علينا ان نملك مزيـة الحكم على نفوسنا

في مذهب الزاهدين والمعتزلين

قد اتخذ الناس طرقاً كثيرة وسلكوها بغية الحصول على الحكم على النفس وكان من اهم طرقهم هذه طريق الزاهدين (الدراويش) والمعتزلين النساك الذين راوا

ان التغلب على اعداء الخُلق لا يتم الا بالانقطاع عن الناس وبتجريد النفس في المناسك والزهد . وبشروا بمذهبهم وبالانزواء في زاوية او صومعة وبقطع جميع العلائق مع الدنيا معتقدين ان بذلك يتم لهم التغلب على النفس

وقد عمّ مذهبهم الشرق والغرب وكثر فيهما اتباعه وما عيش الرهبان في الاديار في اوربا في القرون الوسطى وفي اسيا وعيش الدراويش في الشرق والفقراء في الهند الا نتيجة هذا المذهب ومتفرع عنهُ . ان السالكين هذا المذهب يمتنعون عن الطعام والشراب والتجارة والصناعة وينزوون في راس جبل ام وادٍ عميق ام ارض مقفرة او زاوية في معتزل (تكية) ومنهم من يؤذي جسده بالجلد بالسياط ومنهم من يجفو نفسهُ بمنعها مما تريد . وكانوا وما زالوا يوصون الناس باتباع هذه الامور لاجل التمكن من الحكم على النفس

ان هولاء اندفعوا في هذا المعتقد وسلكوه بدافع عقيدة مغلوطة لانهم فهموا غلطاً منبع الشر والفساد . هم

ظنوا ان الشر والفساد يصدر ينبوعهما من المحيط وحده . لذلك ظنوا انهم بقطع علاقاتهم مع المحيط الخارجي وباذية الجسد تحصل النفس على التهذيب والتربية . مع ان هذا الفكر من اساسهِ مغلوط . نعم انهُ لا ينكر ان في محيطنا شروراً كثيرة مما يمكنهُ ان يؤثر علينا . ولكن تغلب هذه الشرور علينا ناشيء عن انهما كنا بميولنا الباطنة . اصل الشر ليس في ظاهرنا بل في داخلنا

قد يحدث للانسان تجربة مثل يوسف ولكنهُ اذا لم يكن اسير ميولهِ الباطنة يبقى حاكماً كل الحكم على نفسهِ مثل يوسف ايضاً . ان ميكروب العدوى الجسدية يهجم من الخارج على الجسد فمتى كان الجسم مسلحاً بالقوى المضادة للمرض الدافعة لهُ لا يتمكن الميكروب من الاضرار بالجسم . فالاعتزال والزهد لم يحلا قضية الحكم على النفس

فلنسجن ما شئنا ذواتنا المدة التي نريد وفي المكان الذي نريد من دير او زاوية او منسك او صومعة

فذلك لا يمنع انهما كنا بميولنا وشهواتنا ولا يكتب لنا الغلبة عليها

ان منبع الفساد ليس امراً خارجياً بل هو في رغائبنا وحاساتنا. ان داخلنا مملوء من ميكروبات الميول الى الزنا . والفجور. والحسد. والطمع. والخداع وما شاكل ذلك من الشرور المعششة في نفوسنا. لذلك كان اصل المسالة ان ننظف داخلنا ونحارب الشرور الباطنية بضبط النفس وامتلاك الارادة والا فلا تكون العزلة والزهد علاجاً مفيداً . وان اعظم اصحاب الاخلاق الحسنة لم يكونوا من اولئك المعتزلين والزاهدين . ان عظمة الاخلاق و كبرها ليس في الفرار من الحياة في الدنيا بل بالحكم على النفس في القيام بالواجبات الانسانية وتحمل مسؤولية العمل بين الناس

في منازعاتنا مع السيئات وفي الغايات

ان الغاية التي يتوخاها الانسان من حياته هي نقطة

مهمة في بحث التنازع مع السيئات . فمن جرى وراء غاية صالحة سامية يحكي قلعة حصينة لا تقدر السيئات على فتحها . وبالعكس ذاك الذي يجري وراء غاية سافلة شريرة فانهُ تنتصر عليهِ السيئات و يخضع لسلطانها . وهذا هو نتيجة طبيعية لقوانين الانسانية . قلنا سابقاً ان كلاً منا يشبه مخزناً مملوءاً من القوى البشرية فالحرص الذي هو عدم القناعة احد مظاهر تلك القوى التي ليست في اصلها صالحة ولا شريرة لكن اذا اندفعت في مجرى صالح صلحت النتيجة . وان اندفعت في مجرى سيء ساءت النتيجة . فالمسألة الاصلية من نقطة النظر الانساني هي ان يحسن المرء توجيه طبيعته وميلهِ الى غاية صالحة . ليس بالامكان ان نمحو ميولنا الغريزية التي هي بعض موجبات الحياة ونتائج التركيب الجسدي ولا ان نضغط على ميولنا المذكورة ضغطاً غير طبيعي . بل ما نبذلهُ من جهد لمحو هذه الميول قد يحدث فينا اخلالاً في النظام الجسدي والروحي قد يؤدّي الى جنون والجنون ليس من فقدان الميول

الطبيعية بل من سوء ادارتنا هذه الميول فنضيع التوازن كالربان الذي يفلت من يديهِ سكان المركب . بناء عليهِ كان لا بد من ان تجد هذه الميول مخرجاً لها فتعمل عملها وتتخذ مجراها

الغايات السافلة تضعفنا

ليس لنا في تدريب هذه الغايات سوى وجهتين . فاما ان نحنو رؤوسنا لاحكام الميول والشهوات ونخضع لها ونجاريها في مطاليبها السافلة كما فعل كثير ممن سلكوا هذا المسلك سواءٌ كان عن علم او جهل فباتوا اسرى ميولهم عبيد شهواتهم محبين الذات عباد المال مغرورين بنفوسهم . زناة غضابى حسودين على كل شيءٍ طماعين بكل شيءٍ مغتاظين من كل شيء متكبرين في كل آن . محكومين من نفسانيتهم

فالبرهان على كون هذا المسلك لا يوافق الطبيعة

الانسانية وميولها هو كون هذا المسلك يودي الى محو شخصيتنا وهلاكنا . فالناس ليس فيهم من يريد عن قلب وميل ان يعاشر الطماعين والانانيين الذين ينفر من معاشرتهم حتى اقرب الناس اليهم عندئذٍ يبقى هذا الانسان وحده في هذه الدنيا فيقضي العمر معذباً لا يسر بشيءٍ ومن كانت هذه حالهُ يكون قد اسرف باشد قواه وخيرها فيودي بهِ سلوكهُ هذا الى الضعف وبالنهاية الى الموت . هذا الانسان يشبه من يضرم النار في مسكنهِ ويحرق ثروتهُ فيبقى اخيراً بين خرائب العمر ملولاً حزيناً

الغاية السامية تقوينا

واما الوجهة الثانية لميولنا فهي استعمالنا هذه الميول في مقاصد وغايات شريفة صالحة . فالمراة يمكنها ان تولف عائلة وتربي اولادها ويمكنها ان تبذل حنوها وشفقتها على المرضى والجرحى فتعالجهم او ان تهذب الاطفال في مكتب

او مدرسة فتعيش من عرق جبينها شريفة وتساعد اهلها ما امكن من جناها الطاهر

والشاب كذلك فانهُ بدلاً من اضاعة صحتهِ ونشاطهِ في اسرافهِ في الشهوات النفسانية يمكنه ان يصرف قواه في خدمة صالحة لوطنهِ وابناء جنسهِ . ان اكثر مشاهير الناس ضبطوا قوى شبابهم فصرفوها في غايات سامية مثلاً (اديسون) المخترع الشهير لما كان بعد صغيراً طالع جميع الكتب المنظمة على رفوف مكتبة مدنية ديترويت والبالغ ارتفاعها خمسة امتار

والشاعر الانكليزي (كيتس) المشهور لما كان في الرابعة عشرة من عمره نظم الشعر وفي الحادية والعشرين ارسل اشهر قصائده ونشرها

والفيلسوف الاميركاني فرنكلين لما كان في الثالثة عشرة كان يقضي ليله بمطالعة القصائد والدواوين ثم صار ينظم الشعر و يبيعهُ في شوارع بوستون

(وروبيرت فولطون) كان قبل السابعة عشرة من عمره رساماً وشاعراً وجفرسن كان في السابعة عشرة يطالع مدة احدى عشرة ساعة كل يوم

والفيلسوف هربرت سبنسر اخذ شهادة الهندسة في السابعة عشرة من عمره وباسكال الفرنساوي كتب في السادسة عشرة مباحثهُ الشائقة في الرياضيات وفي التاسعة عشرة اخترع الآلة الحاسبة . والاميرال نلسون قاد سفينة حربية اذ كان عمره ست عشرة سنة ونجاها والجنرال الفرنسوي مونتكام والجنرال الانكليزي وولف اشتهرا في الحروب لما كان كل منهما في السادسة عشرة من عمرهِ . وجان دارك المشهورة في دفاعها وحروبها عن وطنها ابتدات بافكارها الوطنية السامية وهي في الثالثة عشرة من عمرها وجوزيف كونراد بعد ان كان بلغ الاحدى والعشرين من عمره وهو لا يعرف شيئاً من اللغة الانكليزية طالع وتعلم هذه اللغة وطارت شهرتهُ في عالم الادب الانكليزي وغاليليو اتم تحصيل الطب في السابعة عشرة من العمر .

وهكصلي قرأ كتباً عديدة قبل بلوغه السابعة عشرة

كثير من الموسيقيين والفنانين ابتدات شهرتهم في التاسعة عشرة من عمرهم

هذا يدلك على ان الانسان اذا ساق قواه الطبيعية في مسالك قويمة يمكنهُ ان يعمل اعمالاً كبيرة مفيدة و ياتي بنتائج باهرة خارقة العادة

من الخامسة عشرة الى العشرين من سني الحياة خطر على الشاب حيث يكون تحت تأثيرات جسدية وعقلية وخصوصاً في حالات هيجانهِ . فلا بدّ اذن لكل شاب اختيار احدى الطريقين المذكورتين

فاما ان تجري قوتهُ وملكتهُ في مجرى صالح او ان يدفعها في مجرى مهلك مؤدٍّ الى الشر والموت . فكم من الشباب ذهبوا ضحية المقاصد المضرة السافلة مع انهُ كان بامكانهم ان يستفيدوا علماً وفناً لو سلكوا المسلك الاخر فسعيد هو ذلك الشاب الذي يجد في هذا العمر لنفسهِ سبيلاً صالحاً ليسلكه ويدفع جميع قواه النفسية الى ذلك

الهدف السامي و يوجه نظره فيحكم على نفسهِ و يتسلط على ميولهِ و يقبضها

حاذر عشراء السوء

المعاشرة مسألة مهمة اخرى لان تاثير المعاشرة والمحيط على سجية المرء مهم جداً . فمن المعاشرة ما يرشد الانسان الى سواء السبيل ومنها ما يخرجه عن هداه فيضل

ليس سهلاً على الانسان ان يقاوم ميلهُ الى شرب الخمر لما يرتاد مجالس السكارى ويعاشرهم . ان كثيراً من المبتلين بداء الشرب كانت بداية شربهم كاساً واحدة شربوها اكراماً لخاطر صديق الحّ عليهم فما شاءوا مخالفتهُ

ان الشرط الاول ليتمكن المرء من الحكم على نفسهِ هو الابتعاد عن عشراء السوء وقطع علاقته المضرة بهم . فاحذر عشراء السوء والكتب والجرائد والصور والحكايات والروايات والمناظر المفسدة فكم اثرت فينا وفي

اخلاقنا الامثلة والحكايات الرديئة التي كنا نسمعها في طفولتنا والقصص التي كنا نطالعها في الخفاء في المدرسة

ان امثال هذا من الامور يفسد تخيلاتنا ويسم افكارنا ويضعف ارادتنا فلا نقوى على ادارة ميولنا والتحكم عليها

فكل كتاب مفسد نقراه وكل كلمة شريرة نسمعها وكل رسم رديء ننظر اليهِ تفتح في سور حاكميتنا على نفسنا ثلمة وتحدث فيهِ تهدماً

احسن انتخاب معاشريك

ولكن هذا وحده لا يكفي لان الحذر من الشر لا يكفي لوحده لوقاية الاخلاق بل مع الاحتراز من الشر يجب الاتجاه نحو الخير

ليس في العالم فراغ ولا يمكن ان يكون فراغ . فاذا افرغت محلاً من المادة يملأهُ الهواء واذا طردت عن فكرك بعض الميول المضرة تجده امتلأ حالاً بميول اخرى وربما

تهاجمهُ ميول اكثر ضرراً وادنى شرفاً فما تكاد تنجو من عدوّ الا وتقع في يد عدوّ اشد

لذلك كان السبيل الاقوم للتخلص من الشر هو الاتجاه نحو الخير واعتناقهُ وليس فقط طرد الشر والابتعاد عنهُ . ان سبيلك للتخلص من الظلمة هو فتح النوافذ التي لجهة الشمس . والتخلص من الهواء الفاسد يتم بتنشق الهواء الطاهر فاتجه الى الخير يهرب الشر من تلقاء نفسهِ اقتبل النور فيندفع الظلام . هذه هي حقائق راهنة واساسية في ظهور السجايا واكتشافها

ان الصحة الجيدة انما تكون لمن يعيش في الهواء النقي والماكل المغذي والرياضة الجيدة وهكذا السجية الصالحة فانما تكون في المعاشرة النزيهة والفكر المهذب والاعتياد المفيد . لا يكفي بان تجتهد بأن لا تعمل شراً بل يجب عليك ايضاً ان تداوم على التماسّ مع الخير ومرافقتهِ وان تكون صالحاً وان تتأدب بادب الصالحين الحسني الاخلاق

ان شباناً كثيرين خربت اخلاقهم وساءت بسبب انهم كانوا من صغرهم يعاشرون الاردياء الخلق و يسمعون كلمات بذيئة و يطالعون كتباً مضرة فسعيد ذلك الذي يولد في احضان عائلة صالحة و ينمو في محيط صالح و يدرس في مدرسة صالحة و يعاشر اشخاصاً صالحين

اعتد العادات الصالحة . وكن نجيب الاطوار

من المسائل الهامة في باب الحكم على النفس مسالة اكتساب العادات الصالحة فمن لم يعتد على العيش المستقيم وعلى الافكار النزيهة القويمة تتغلب عليهِ حالاً اهواؤُه فلا يمكنهُ ان يحكم على نفسهِ و بالعكس من يعتاد المعاملات القويمة والافكار المصيبة الصالحة فانهُ يصعب جداً على اهوائه ان تستميلهُ

فكما ان الانسان الذي يعتاد على العيشة في الهواء النقي والغذاء المفيد النظيف يمكن صحتهُ ان تقاوم هجوم الامراض هكذا من يعتاد على طهارة الخلق تكون روحهُ

قادرة على مقاومة الاخلاق الفاسدة . فلتكن اطوارنا قويمة ونجيبة ولطيفة . ولا نكن سريعي الغضب حمقى . ولنجتهد بان نفسر الامور لجهة مفيدة صالحة عوضاً من تفسيرها لجهات شريرة . ولنصبر على من يسيء الينا

ولنقابل الدعاء الشرير بالدعاء الصالح وفي معاشرتنا للناس يجب ان نبتعد عن اثارة الخلافات والمنازعات وان نكون واياهم في محبة وانتظام . ولنكن انموذجاً للحلم والتواضع ولا نتكبر ولا نغتر بانفسنا . والحاصل فليعبق من اخلاقنا واطوارنا اريج الظرف والحلم والصبر واللطف حتى اذا اعتدنا هذه العادات الصالحة نحكم على انفسنا

فلتكن تصوراتك نزيهة

كذلك لنعتد على التصورات النزيهة والتخيلات الادبية لان اصل ينبوع الشرّ هو التصورات والتخيلات الباطنة . وليست الافعال الا ثمار هذه التصورات . لهذا

السبب كان اهم ما يجب علينا هو الانتباه الى احوالنا الداخلية وتهذيب الباطن . فعلينا ان نعتاد طرد التصورات الرديئة ونقبل الصالحة

ان الانسان قبل ان يرتكب جناية القتل يمتلئ من حاسات الغضب والحقد والعداوة وكثيراً ما يكون فعل القتل متولداً عن هذه الحاسات . ان الساقطين في معصية الزنا والفحش انما يبتلون اولاً بالتصورات والميول الى هذه فيتخيلونها اولاً ومن ثم تتغلب عليهم التجربة . ان كل انسان قبل ان يعمل الشر فعلاً يعملهُ تصوراً ولذلك يقع سريعاً في يديهِ . فمن هذه الايضاحات يظهر انهُ يلزمنا ان نتغلب اولاً على تصوراتنا وميولنا الباطنة

ومن العبث ان نتمكن من الظفر الخارجي على هذا العدو بعد ان يكون هو تغلب علينا باطنياً . بناءً عليهِ فلنعتد على الافكار والميول والاحساسات الصالحة

اذا رغبت ان تظل بعيداً عن الجناية فلا تضمر عداءً وشراً بل بالعكس اضمر الصداقة والمحبة للجميع . عندئذٍ لا ينفعل منك احد . واذا رغبت ان لا تسقط في الفحش والزنا فانظر لمن حواليك بعين نقيــة وقلب طاهر

مثال

اخرج معلم تلاميذه ذات يوم مثلج وامرهم بان يركضوا على الثلج واعداً بجائزة لمن يترك وراءه خطاً مستقيماً في الثلج فاخذ الطلبة كلهم يركضون حتى صدر الامر بالوقوف فوقفوا ولما التفتوا الى الوراء راوا ان كلاً منهم قد ترك خلفهُ خطاً كثير الاعوجاج الا ان واحداً ترك خطاً مستقيماً فسأل المعلم الطلبة عن كيف كانوا يركضون فاجابوه انهم كانوا ينظرون الى ارجلهم مجتهدين ان يركضوا على خط مستقيم وقد تعجبوا من من عدم تركهم اثراً مستقيماً

فسال التلميذ الذي فاز بالجائزة فاجاب انهُ اتخذ الشجرة التي امامهم هدفاً وسدد اليها خطاه فتمكن من ترك اثر مستقيم وراءه على الثلج

النتيجة

ان اردت ان تربح جائزة الاخلاق فسدد خطاك الى هدفٍ عالٍ شريف

مكتبة الاخلاقيات الدينية

الكتاب السابع

ما هي الخطيئة

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

ترجم عن التركية ونشر بعناية المطبعة الاميركانية

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٩

مقدّمة عامة

ان الحاجات المادية تشغل الناس في الامور الاقتصادية والاجتماعية فيعرض للافراد في حياتهم الذاتية وللملل في حياتها الاجتماعية كثير من المسائل المشكلة . وهذه المسائل التي تبدو لنا فنظنها اقتصادية او ادارية محضة هي في الحقيقة مبنية على اساسات خلقية وروحية

انما حل هذه المسائل المشكلة لا يتم الا في تجـدد خلقي روحي ولكي يكون الناس اكثر سعادة واوفر افادة في حياتهم الذاتية والاجتماعية وجب عليهم ان يتتبعوا من وجهة نظر جديدة هذه الاساسات الخلقية والروحية ويحققوا فيها لانها المسيطرة على امور الحياة

وغايتنا ان يحصل لنا الحظ والغبطة بان ندلـــ على السبيل المؤدي الى اعلاء مستوى كل منا شخصيًّا وارتقاء بلادنا الى مستوى رفيع في الحياة متحرين الحقيقة من غير ما تحيز في هذه المواضيع الكثيرة الاهمية وهذه المبادي التي هي بناء حياتنا الذاتية والاجتماعية

ما هي الخطيئة

كل يريد ان يكون جيداً وان يعيش جيداً وما من احد يسر بان يكون رديئاً حتى الاشخاص الارديا انفسهم يسرّون بان يكون لهم اسم جيد بين الناس

ففي الاخلاق تفرق عيارات الناس وقياساتهم فتتنوع بمقتضى المحيط والتربية ولكن كل امرئ يريد بالنسبة الى المقياس الذي يعيش نفسهُ فيهِ ان يكون جيداً وهذا شعور طبيعي في الناس فكلهم يريد ان يكون كاملاً وان يظهر للناس كاملاً

ولكن افعالنا تناقض هذا الشعور الباطني فبينما نحن نرغب ان نعيش صالحين نجد الرداءة متسلطة في نفوسنا وبينما نريد ان نتحلى بصفات النزاهة والحاسات الشريفة تتغلب علينا الحاسات الرديئة . نطلب الخير فنسقط في الشر . فلا توافق افعالنا آمالنا ولهذا السبب يكون فينا

دائماً شعور الطمع والتذمر . فلا نكون ذلك الانسان الذي نريد ان نكون فنضارع آلة موسيقية غير مدوزنة . جميلة من الخارج واما اوتارها من الداخل فمخربة معطلة دهانها وصباغها متلمعان واما انغامها فغير منسقة ولا موثرة

واهم مسألة في حياة الانسان هي مسألة عدم النسق والدوزان هذا وما الخطيئة غير هذا العطل والتخريب الاخلاقي . فمن كان اسيراً لشهوات نفسهِ لا يمكنهُ ان يعيش عيشة الانسان . فمهما كان عملهُ ومقامهُ فان الفساد يدب في باطنهِ وينخر عظامهُ

فطالب العلم الذي تتغلب عليهِ الخطيئة لا يحكم على نفسهِ ولا يجمع عقله فيقصر في دروسه والخطيئة تفسد افكاره وتضر بصحتهِ . وهكذا الرجل المتعبد للخطيئة فانهُ يعجز عن مقاومة صعوبات الحياة فلا يقدر على امعان الفكر براحة ولا على تفهم حقائق الامور لان

البغض والغرض وما اليهما من المشاعر السافلة ترمي بنا الى قرارات سافلة

الخطيئة مرض اخلاقي . نوع من الفالج الاخلاقي الذي يبطل رجوليتنا ويعطلنا منها

فالابتعاد عن عدم الانتظام الاخلاقي هذا وقتل ميكروب عدوى هذا المرض هما بالنظر لكل انسان باهمية الثروة والصحة والتعليم والتربية

الخطيئة والحياة الاجتماعية

هذه المسالة مهمة في حياة المجتمع اهميتها في حياة الفرد فالافراد الذين يؤلفون مجتمعاً اذا كانوا كذبة وسيئي الاخلاق يتعاملون بالطمع والحسد ويفتكرون بالمضرة

فعندها تتعطل حياة ذلك المجتمع وتجارته وانسه ورفاهه لانه يجب لاجل ابقاء الجماعة ان تحتكم في افرادها

الثقة والاعتماد والاخلاق الصالحة والا فلا نفع للقوانين مهما كانت راقية لان الناس يحتالون على القانون ويجدون في كل حال سبيلاً للتملص من مسؤولية مخالفتهم القانون

واما الحيلة فهي تؤذي بالصحة الاجتماعية : ان مسالة الخطية هي مسالة الاخلاق لان الاخلاق هي الحجر الاساسي في بناء الاجتماع . وبناءً عليهِ كانت هذه المسالة هامة جداً في شأن ترقي المجتمع البشري

في الاخلاق والاوامر الدينية

ان في الاخلاق رأياً مخطئاً نشأ عن توحيد الاخلاق مع الاوامر الدينية . ان في الدين اوامر ونواهي تتضمن عمل شيء او عدم عمله

والناس على قدر تفهمهم تلك الاوامر وتفسيرهم اياها يطيعونها طاعة عمياء . وهكذا قد ظن بعضهم الاخلاق اوامر سموية منزلة فهي عندهم بدرجة الاوامر المطلقة

فكان من ذلك ان من اراد تجنب الاوامر الدينية والاستبداد الديني يضطر الى هجر الاخلاق

مع انهُ يلزم اعمال الفكرة والتمعن جيداً فانهُ وان كان في النظم الدينية قوانين اخلاقية فالاخلاق هي فارقة عنها بانها طبيعية واصلية في الانسان فمن المبادىء الاخلاقية المقررة انهُ يلزمنا مراعاة الاخلاق لا لانها منزلة في كتاب بل لانها شيء طبيعي في الانسان نتج عن اهمالهِ تدني الانسان وسقوطهِ

فالمتكلم بالكذب يسقط ذاتهُ من ذاتهِ ويسلب نفسهُ حيثيتها الانسانية وهكذا الخطايا الاخرى كالطمع والحسد والزنا فانها تخل بشرف الانسانية وتنزل مرتكبها لدركة الحشرات

فالمبادي الاخلاقية ليست اوامر استبدادية صدرت على ارادة مصدرها ومشيئتهِ بل هي مباديء سلحتنا بها الطبيعة وتاصلت في نفوسنا فلا يمكننا انكارها عندما نريد

ان المبادىء الاخلاقية هي عصارة حياتنا الانسانية فمن انكر الاخلاق سقط من صفته الانسانية ومن عاش بلا اخلاق فهو ميت في نظر الانسانية

في التعليم عن الجنة وجهنم

في بعض الانظمة الدينية يوجد تعليم عن الجنة وجهنم وكثير من الناس قد فهموا هذا التعليم على الوجه الاتي :

فكأن الانسان باعتقادهم حر بان يعيش كيفما شاء في هذه الدنيا حتى اذا مات يتخلص من العذاب ويحظى بالنعمة الموعود بها في الاخرة بشفاعة نبي يلتجي اليهِ . فهذه العقيدة قد ساقت كثيراً من الناس الى التراخي والتكاسل في مراعاة شروط الاخلاق فهولاء لا يتحرون الحق من الظلم او المعتدل من المعوج

منهم اذا راوا لزوماً للصدق صدقوا او للكذب كذبوا فيعملون ما يحتاجون الى عملهِ وفي النهاية لهم امل بطريق موصلة الى الجنة

فبالنظر لهذه العقيدة اصبحت الجنة والنار اشبه بملك تحت ادارة مطلقة يديرهُ اله مستبد وهذا الاله المستبد يرسل من شاء الى النار ومن شاء الى الجنة

ان هذا لخطأٌ في العقيدة فالجنة والنار ليستا كذلك. ان الجنة والنار حالة نعيش في وسطها، فالسيء الاخلاق والسارق والمحتال والظالم والغادر هم بالذات في وسط جهنم يعيشون

ان هولاء لا يرون السعادة في حياتهم بل يحيون في عذاب دائم اليم . فلا يقدرون على الحياة ناصعي الجبين طاهري الايدي

فما ارتكبوه من الاثام يعذبهم دائماً وهم انفسهم يظلمون ويلقون بها الى النار بايديهم. فالحال التي هم فيها هي حال جهنم الابدية وانك لتجد امثلة كثيرة لذلك في كتب شكسبير وملتون ودانته ومن في مقامهم من كبار الادباء

فان (مكبث) الذي دفعهُ الحسد والطمع الى قتل ملكهِ كان رغماً عن جهده في تطمين ضميره لا يجد مع ايديهِ الملطخة بالدم راحة في اي محل أوى اليهِ

واما المرأة التي دفعت (مكبث) الى ارتكاب هذه الجريمة فانهـا كانت لا تذوق راحة النوم تقضي حياتها شريدة طريدة الهمّ والعذاب تفتش عن راحة الوجدان فلا تجدها

واما الشيطان العاصي الذي ورد ذكره في قصائد ملتون فكان في جهنم ينظر الى ما حواليه ويقول « جهنم في كل محل جهنم » ثم يلتفت الى نفسهِ ويقول في ذاتهِ كلمة محقة وهي « انا ذاتي جهنم »

مبادىء الاخلاق لا تتغير

ولا يمكننا ان نتلاعب بها كيفما شئنا . ان انسانيتنا تجبرنا على مراعاة تلك المباديء فلا نقـدر على انكار

الوجدان واذا انكرنا فنندم ونتعذب . الاخلاق امر طبيعي في الانسان . الاخلاق ليست قيود الاسر التي تقيد الانسان بل هي الاجنحة التي ترفع الانسان وتطير به الى الاعالي . فاذا تكسرت هذه الاجنحة نسقط للحضيض ونتحطم واذا قوينا هذه الاجنحة نرتفع ونرتقي ونشعر بالسعادة

الاخلاق امر معقول واما ما ليس معقولاً فهو عدم الاخلاق

يظن البعض ان الاخلاق عبارة عن اشياء عتيقة رثة او مبادىء مخصوصة لعصور الجهل فلا تلزم مراعاتها في عصر المدنية والرقي . لان المدنية هي الحرية والحرية هي الانعتاق من كل قيد وبناءً عليهِ فان من حق كل فرد ان يتملص من تلك القيود والمبادىء العتيقة ويعمل ما يشاء وما يريد لان كل واحد يجب ان يكون حراً في فعلهِ وقولهِ فلذلك هم يقولون بطرح مبادىء الاخلاق وهجرها

ان (كانت) وضع عياراً يمكن ان يعلم منهُ اذا كان ما نعملهُ قويماً او غير قويم حيث قال : « تصرف تصرفاً يمكن ان يكون لعموم الناس مبدأً عاماً حيث اذا عملوا به كلهم يسود العالم وحدة النظام »

فلو درسنا مبادىء الاخلاق على هذه النظرية وجدنا ان مبادىء الاخلاق ليست عبارة عن اشياء عتقية رثة بل عبارة عن مبادىء معقولة . خذ لك مثلاً قضية الكذب فلو قبلنا بان يكون مبدا عاماً وصار كل كلام الناس كذباً فهل يبقى بالامكان ان نعيش في هذه الدنيا ؟ بناءً عليه فان الكذب غير معقول وهو مخالف للمنطق وللانسانية

اما الصدق فهو معقول وتجب مراعاتهُ في البدوي والحضري في العالم والجاهل في الافريقي والاوربي والغربي والشرقي على السواء في كل زمان وكل مكان

وقس على ذلك مبدأ الانتحار فان بعضهم اجازوا

هذا المبدأ على انهُ في كل حال هو مبدا غير معقول . لانهُ لو عم هذا المبدأُ الجميع وقبلهُ كل الناس فتصدى كل انسان الى الانتحار تمسي الارض خراباً وتمحى البشرية

فبناءً عليهِ كان التمسك بالحياة مبدأً معقولاً ووجب على كل انسان ان يسعى لاجل بقائهِ حياً

وعلى ذلك قس مبدأَ المؤَانسة والاحترام فانهُ لو عم الخلق مبدأُ مجافاة الناس وعدم احترامهم لعم الدنيا وحشة وجفاء ولذلك كان مبدأُ الموانسة والاحترام معقولاً وتجب مراعاتهُ في كل مكان وزمان وهكذا هو مبدأُ الشرف والناموس والعرض وقدسية حياة العائلة فلو فقد الناس الشعور بالشرف والناموس وانكروا قداسة العائلة والمحافظة على العرض فقام كل ذكر او انثى يعمل ما شاءَ ويخالف هذه المبادىءَ لامست الدنيا عبارة عن دار فحش واسعة وباتت الحياة فحشاً وفسقاً

لذلك كان مبدأُ الناموس والعرض مقدساً ومعقولاً ووجب اتباعهُ في كل مكان وكل زمان

من هذه الامثلة يفهم بوضوح ان التحلي بالاخلاق الصالحة في حياتنا امر موافق للعقل والانسانية وان حسن الخلق والعدل صنوان وانهما لا يناقض احدهما الآخر بل هما متوافقان كل التوافق .

ولذلك فان المدنية والتهذيب يمكنهما ان يسيرا جنباً لجنب بل يجب ان يسيرا كذلك لان كلاً منهما متمم للآخر فلا يمكن للانسان في ترقيهِ ان يطرح مبادىء الاخلاق ويزدريها لانها اساس حياتهِ الشخصية والاجتماعية . فالاخلاق تعلي البشرية واما الرذيلة فتخرب الانسانية اوَ ليست المصائب البشرية الحاضرة نتيجة لعدم رعاية مبادىء الاخلاق ؟

ان اعلى واشرف مبادىء الاخلاق مبدأُ المحبة الذي يوجب على كل انسان ان يحب الاخرين وان يسعى

لخيرهم . اما الرذيلة فهي انكار هذا المبدإ . هي البغضاء التي من نتائجها الحقد والعداء والتنازع والمقاتلة . اما نتيجة المحبة فالسلام والسعادة وفي تطبيق هذا المبدا الصالح يظهر لك جلياً ان حسن الاخلاق امر معقول وانساني

نضرب لك مثلاً: كان اخوان زارعان وكان في زمن الحصاد ان جمع كل موسمهُ في بيدر واكمل عمل دراسته على ان ينقلهُ في اليوم الثاني الى بيتهِ . وكان احدهما رب عائلة والاخر عازباً ففي المساء قال العازب في نفسهِ ان اخي رب عائلة وانا وحدي فيجب ان اعطيهُ قسماً من قمحي فانقلهُ ليلاً واضعهُ لهُ فوق قمحهِ فلا يعلم بذلك فيخجلني بالشكر على واجب . وهكذا قال المتزوج في نفسهِ ان اخي عازب وعليه ان يتزوج وسيتكبد مصاريف فعليّ ان اساعده بان اضيف على قمحه قسماً من قمحي وقرر ان ينهض في الليل فيضيف من قمحهِ على قمح اخيهِ . وما ان اظلم الليل حتى قام كل منهما الى وعاءٍ وملأه وحمله ذاهباً

الى ناحية بيدر اخيهِ فالتقيا فجاة وهما في هذه الحال فتعانقا وشكر كل الآخر وهكذا كان السلام والمحبة سائدين في تلك العائلة

فلو فرضنا ان عوضاً عن هذه العاطفة الشريفة كان سائداً على هذين الاخوين البغض والعداء ومال كل منهما الى اخذ مال الاخر وسرقته فكم من المؤسفات التي اخفتها الجوع كانت تقع بينهما . ان الدنيا مملوءة من الخيرات والنعم وليست مصائب العالم نتيجة نقصان الخيرات والنعم بل نتيجة انكار الناس لمبدإِ المحبة الشريف

فلو ان الناس تعاملوا بمبادىء المحبة عوضاً من الطمع والحسد لاصبحت الارض جنة وكان كل انسان سعيداً . بناءً عليهِ فان مبدأَ المحبة معقول واما الحسد والطمع والحقد والتغرض فليست بامور معقولة ففي كل مكان وكل زمان يجب ان يتعامل الناس بالمحبة وان يسود الدنيا هذا المبدأُ الشريف

الخطيئة جهالة

اننا اذا عيرنا الخطيئة في عيار (كانت) نجدها محض جهالة وحمق . فانها تدل على عدم معرفتنا منفعتنا . المرء يحصد ما زرع ومن القواعد العمومية ان لكل عمل عكس عمل (او رد فعل) . فاذا نحن عاملنا الناس بالبغض والحقد والعداء فعلينا ان ننتظر منهم بغضاً وحقداً وعداء . اذا استسلمنا للشهوات الحيوانية فعلينا ان ننتظر الامراض فتسود علينا الاوجاع والشقاء . ان الانسان هو حاصل اعماله وعوائده فاي شيء وجهنا اليهِ آمالنا ورغائبنا فنحن الى ذلك واصلون ولنتائجهِ حاصدون وهو يظهر في اعمالنا وحركاتنا . فانت لا تجد ما لا تفتش عنهُ . ان سجايانا وشخصيتنا مؤلفة من غاياتنا وآمالنا حيث تقوى تلك الشواعر فينا حتى درجة العادة وما العادة اذا تملكت من المرء الا طبيعة قوية فيهِ ومن امثال الانكليز « اذا

زرعت عملاً حصدت عادة واذا زرعت عادة حصدت طبيعة »

ان الافعال تحاكي البذور التي يزرعها الزارع في الارض وفي عقباها تحصل العادة ومجموع العادات يولف الشخص فما انت الا مجموعة عاداتك . بناءً عليهِ فقد وجب ان نعتني جداً بتربية وتهذيب اعمالنا وشواعرنا فان الميول والافكار المتشربة بالرذيلة تودي الى اسقاطنا انسانياً وخرابنا مالياً وايلامنا جسدياً ولذلك فان الخطيئة والرذيلة محض جهل . انهما نتيجة عدم ادراكنا حقيقة الحياة

الخطيئة اسر

ما هي الحرية ؟ ظن بعضهم ان الحرية هي ان يعمل الانسان ويقول ما يريد فهذا اعتقاد مخطئ وان صح هذا فالمجانين اذن في طليعة الاحرار

الحرية الحقيقية ليست بان يعمل الانسان ما يريد بل في ان يعمل الصالح المفيد وبان يكون مقتدراً على هجر الاعمال المضرة مريداً وعاملاً الاعمال المفيدة للمجموع

والا فان الانسان لو قال انا حر واخذ يعمل الضرر كمن يضرب نفسهُ فهو معتوه. واذا درسنا المسالة من جهة الصحة والعافية نجد أن الحرية تحذر الانسان من الاشياء المضرة بصحتهِ وتوجب عليهِ النافع لها

الانسان حر بان ياكل القدر الذي يريد من الطعام ولكن اذا زاد عن درجة احتمال معدته فانهُ يتضرر ويحتاج الى الطبيب الذي يوصيه بان يراعي قانون الصحة ويعلمهُ بانهُ ليس حراً بان ياكل اكثر من احتياجه بل انهُ اسير معدتهِ وتحمل جسده وان استعمل حريتهُ كما يشاء فانهُ يمرض ويموت

ان هذا المبدأ يصح اعتناقه ايضاً في حياتنا الاخلاقية.

فان الحرية الشخصية ليست بان يعيش الانسان كيفما شاء باخلاق صالحة او اخلاق شريرة بل ان الحرية الحقيقية هي ان نعمل ما يفيد وينفع اخلاقنا ونحذر مما يضرّ بها ونبتعد عنهُ فاتباع الشهوات ليس حرية بل هو اسر لانهُ يضر بشخصيتنا . يمكن الانسان ان يطمع بكل ما يراه وان يشتهي اشياء الاخرين ويحسدهم عليها وان يكون محباً لذاتهِ انانياً ولكن ذلك ليس حرية لان تلك الامور تذل شخصيتـــه وتخل بانسانيتهِ وتكسر نفوذه واعتباره فالحرية الحقيقية في هذا الشأن هي في الاقتدار على الابتعاد عن هذه الامور لا في اعتناقها والعمل بها

بناءً عليهِ فالخطيئة ليست حرية بل هي اسر . وفي كل يوم نرى باعيننـــا اولئك الشبان المساكين اولاد النعم والرفاه الذين امسوا فقراء ومحتاجين بسبب اتباعهم شهواتهم . واولئك الاقوياء الذين بسبب ادمانهم المسكرات واراهم انغماسهم فيها اللحد بعد امراض واوجاع شديدة

ان الانسان المحب للذات الاناني الطماع الحسود يكون دائماً غير محبوب وغير مقبول عند الناس وهو دائماً متعذب يكاد ان يقتلهُ كيده وتكون اخلاقهُ سافلة ولا فائدة منهُ لابناء جنسهِ وانك لتجد في كل مكان قوماً يحصدون العذاب والآلام الجسدية والنفسية من اعمالهم وهذا كلهُ نتيجة الخطيئة

فمع حسن الاخلاق تكون الحرية . وليست الحرية من سوء الاخلاق في شيء

منبع الخطيئة

انهُ وان كان لمحيطنا اثر قوي في اخلاقنا وان كان العيش في محيط صالح اسهل منهُ في محيط غير مساعد الا ان منبع الخطيئة ليس في الحالات والكيفيات الخارجية بل اصل وسبب هذه الخطيئة هو باطني في الانسان ولكن الاحوال والكيفيات الخارجية تكون سبباً لظهور تلك الخطيئة

فانك تنظر الى شخصين في حادث واحد فتجد احدهما غضبان يشتعل غيظاً وحقداً فيشتم و يسب والاخر يتلقى الحادثة ببرودة وسلامة . وانك تجد امام حادث الاغواء الواحد شخصين فاحدهما يضيع ارادته فيسقط بين ايدي مغويه والاخر يحكم على اراداته ويضبط نفسه فيحافظ على عفافهِ . انك لتجد الكثيرين يسرعون الى الغواية رغم ما لهم من احوال تساعدهم على التخلص منها وتجد بعض الناس يعتصمون بجبال طهارتهم حتى في اشد الحالات كيوسف الصديق مثلاً

نعم ان للحال والكيفية اهمية ولكن اصل المسألة هي مسألة الدور الذي تمثلهُ ارادة الانسان في تلك الاحوال والكيفيات . ان الخطيئة تنشأ عن انهما كنا الباطني فالانسان يسقط في الخطيئة في الفكر والحس قبل ان يسقط فيها في الفعل . فالحسد والطمع يرتكزان اولاً في باطن الانسان و بعد ان يملكا عليهِ حواسه يظهران للخارج بمظاهر الغضب والشتم و كسر الخاطر وقد يدفعان

بصاحبهما الى ارتكاب جناية

وكذلك الشهوات الحيوانية فبعد ان تنمو في باطننا تظهر في الخارج فتسوقنا الى دور الفسق والفجور فندخل ابوابها ونلطخ بادرانها نفوسنا. اما نحن فبوجه عام نجتهد بان نتخلص من هذه الحوادث بنسبتها الى الشيطان ونقول انهُ اغوانا مع اننا نملك حرية شخصية تكفي للشعور بالمسؤُولية الاخلاقية الناتجة عن ارتكابنا الافعال الرديئة

ومهما كانت الاحوال والكيفيات المحيطة بنا والميول التي ورثناها عن اهلنا فاننا نملك في كل وقت الحس والشعور الكافيين لتحمل مسؤُولية انتخاب الطريق التي نسلك فيها

نحن لسنا مغلوبي وماسوري حوادث الحياة وان كنا نطفر كثيراً الى السير في الظلام ولكن لسنا كتلك الاخشاب المتجمعة بهيئة مركب والتي لا دفة ولا سكان ولا ربان بل لها بالعكس مثل ذلك المركب الذي فيهِ دفة

وسكان فيمكن لربانهِ ان يسيره فوق الامواج الى حيث بر السلامة

وهذا هو كبر الانسان وشرف اقتداره ومن هنا نشأت الخطيئة لانهُ بينما يمكننا ان نعمل صالحًا لا نعمل الا طالحًا وبينما نرى الحق نتغاضى عنهُ الى الظلم وعوضاً عن الرفعة والعلو نهوي الى السقوط في دركات السفالة فنسقط في الخطيئة فليست مسالة الخطيئة مسالة شيطان بل مسالة ارادة

فالخطيئة هي اساءة استعمال الانسان لحريتهِ وبناءً عليه فنحن المسؤولون عن خطايانا

في محاربة الخطيئة

هذه اعقد المسائل ولكنها اهمها ايضاً : يجب على كل انسان ان يعرف كيف يحسن استعمال ارادته حتى يتمكن من صرف قواه في طرق الخير وسبل الحياة السعيدة

اما ذلك الانسان الذي تقيمهُ وتقعده المسائل التافهة وتهزه نسمات ارياح الحوادث البسيطة وتجذبهُ نحوها التاثيرات الخارجية الضعيفة فهذا كما انهُ لا يقدر على ادارة حياته جيداً فهو لا يومل من حياته اقل فائدة لبني جنسه . لذلك فقد وجب على كل من يريد ان يكون انساناً حقيقياً ان يحارب الخطيئة وهذه مسألة حيوية

الواسطة للخلاص من الخطيئة ليست بقتل الشعور

قد اوصى بعضهم بقتل الشعور للتخلص من الخطيئة وهذا من تعاليم (بوذا) لانه هكذا علم وهكذا عاش فهو يعتقد ان اعدى عدو الانسان رغائبهُ وميولهُ وبناءً عليهِ فهو يوصي بان نقتل هذه الميول والرغائب بكل الوسائط الممكنة حتى نصل في النتيجة الى حالة من المسكنة مجردة عن كل ميل وكل شعور . وغاية تعليم بوذا هي ما دعاه (نروانه) اي عدم الشعور الباطني . واما هو فلكي

يصل الى ذلك فقد هجر عائلتهُ واهلـهُ واجتهد ليعيش حياة خالية من كل ميل ومع ذلك فان شريعة بوذا هذه لم تهدِ الى صراط السلامة المستقيم

لان ليس بامكان الانسان ان يعيش بدون عاطفة او ميل

فلنجتهد مهما اجتهدنا فلا يمكن ان نصل الى حال نفقد فيها حسنا وشعورنا وفضلاً عن ذلك فان تعليم بوذا مغلوط من اساسه لان الميول وعدم الحاسات ليست بحد ذاتها اشياء مضرة وليس الجمود وعدم الشعور مما يرغب فيهِ للانسان وليست الحاسات سبباً لعدم السلامة بل سبب هذا هو اساءتنا استعمال حاساتنا وشواعرنا فلو هذبنا حاساتنا ووجهناها الى المقاصد القويمة لكان حصل لنا في حياتنا شعور القناعة . واما العطل من الحس فليس من الانسانية في شيء ولا يولد فينا حب القناعة . الانسان فعّال ولكن عليهِ ان يفعل في سبيل المقصد المستقيم . وليس

سبب الخطيئة في علاقة الانسان في الحياة ، ليس في الاكل والشرب بل في ان يعيش المرء لاجل الاكل والشرب . نحن مجبورون على لبس الثياب ولكن لا شيء يجبرنا على ان تستعبدنا الازياء فنحصر جميع افكارنا وجهودنا لاجل اتباعها واقتنائها وان فعلنا فنكون اسأنا العمل

كذلك ليس الاثراء والغنى خطيئة ولكن حصر الانسان اعمالهُ وحياتهُ فقط لاجل الاثراء والغنى فهذا مخطىء

ان الخطيئة هي في ان يتبع الانسان ميولهُ ورغائبهُ السافلة اما طريقة (بوذا) فانها لا تصلح علاجاً للتخلص من الخطيئة لان الاعتزال والانفراد لا يخلصنا من الخطيئة بل نكون قد صرفنا جهوداً في غير فائدة

وكذلك المراسم والطقوس فانها لا تكفي

وقد اوصى بعضهم بمحاربة الخطيئة في اجراء مراسم وطقوس فلو كانت الخطيئة امراً متعلقاً باجسادنا لكان بامكان المراسم والطقوس الخارجية ان تطهرنا ولكن الخطيئة شيء يتعلق بشخصيتنا الانسانية فمن العبث ان نجتهد في تنظيفنا منها بالوسائط الخارجية فاذا غسلنا ايدينا وارجلنا حتى وكل جسدنا بالوضوء او بالعماد و بقيت افكارنا ملطخة بالحسد والطمع والشهوة فما البفائدة من تلك النظافة الجسدية

لو اقمنا صلاتنا في اوقاتها وطبقاً لاصولها ولكن الانانية وعداوة الاخرين وحس الظلم بقيت متاصلة في نفوسنا فماهي الفائدة من الصلاة والعبادة فالمراسم والطقوس لا تخلصنا من الخطايا و يوجد من يؤمن انهُ باقامة الصلاة وطقوس العبادة على الوجه المذكور يربح فضيلة

فينجو من جزاء الخطيئة فهذا بالطبع امل فارغ ومع ذلك فاصل المسالة ليس متعلقاً بالتخلص من جزاء الخطيئة بل القصد هو التخلص من ذات الخطيئة فيجب ان تتبدل طبيعة الانسان وسجيتهُ

نقطتان مهمتان

في درسنا مسألة محاربة الخطيئة يلزمنا ان ندرس نقطتين هامتين وهما :

الاولى — القوى والاستعدادات الاخلاقية الكامنة في الانسان

الثانية — استعمال هـذه القوى والاستعدادات الاخلاقية بصورة مؤثرة

النقطة الاولى : القوى الاخلاقية

ففي درس الاولى ندرس ما فينا من منابع للقوى الاخلاقية . . ان الانسان في اصلهِ موجود اخلاقي

فنحن خلقنا في هذه الحياة مجهزين بقوى واستعدادات اخلاقية عجيبة فان الطبيعة وضعت فينا كل القوات والمعدات اللازمة لاحتمالنا كل مصائب الحياة وتجاربها ومشكلاتها فيمكننا ان نعيش باخلاق حسنة حتى في اشد الضيقات. وتاريخ البشر ملآن بامثلة عن ذلك وهذه القوة هي ركن عظيم لحياتنا وجميع الترقيات البشرية حصلت بالاستناد على هذا الركن ولولا ذلك لظل الناس في حال الوحشية وطور البداوة

الانسان فطر على ان يكون مقتدراً على محاربة اشد الحالات مضايقة واتعسها حظاً فهو الذي جعل من الارض السواخ الكثيرة الاوحال جنات واجرى في الصحارى ينابيع المياه وحفر آبارها وجعل الدنيا المقفرة صالحة للسكنى ورفاه العيش. وكذلك فانهُ بفضل التربية والتعليم وتقوية الارادة نبغ واشتهر حتى في احط محيط نوابغ خدموا الانسانية والوطن خدمات جلى فكما يمكننا ان نبدل ونغير في احوالنا المادية فهكذا يمكننا ان نصحح اغلاطنا ونهذب

اخلاقنا فمتى كان لنا هدف مستقيم امكننا ان نسوق اخلاقنا وقوانا في سبيل هذا الهدف

ان الحال الطبيعي للانسان هو حال الصلاح وليس حال الطلاح

اجل ان الاصل في الانسان ان يكون صالحاً ومحباً للحقيقة وطاهر الوجدان فلذلك كان بامكاننا ان نظل طاهرين وحسني الاخلاق

ان اصدق مثال لهذا هو النظرية العصرية الواجب اتباعها في اصول تربية الاولاد فقدماً كانوا يظنون ان الطفل يولد في وسط الخطيئة متسربلاً بها ولذلك فهم يعتقدون بلزوم تطهيره من ادران الخطيئة باجراء بعض طقوس ومراسم دينية وبسبب هذا الاعتقاد رسخ في الافكار ان الولد من طبعهِ خاطئ فيجتهدون في اصلاحهِ رويداً رويداً حتى يتملك الصلاح من نفسهِ اما اليوم فان هذه النظرية قد بطلت وتبدلت فلا الطفل يولد في الخطيئة ولا يحتاج الى مدة طويلة لاصلاح نفسهِ

وتطهيره من الخطيئة بل الاعتقاد السائد الان ان الطفل يولد نظيفاً لا صالحاً ولا طالحاً ولكن فيهِ الاستعداد ليكون صالحاً او طالحاً وهذا متوقف على التعليم والتربية والعائلة والمحيط الذي ينشأُ فيهِ فبتعليم صالح وتربية جيدة تجعل من الطفل رجلاً مفيداً وبتعليم وتربية فاسدين تجعلهُ رجلاً مضراً

ان الطفل يبتدىء بان يتعلم من والديه ومعاملتهما لهُ اما اخلاقاً جيدة واما خصالاً رديئة فهو في ذلك المحيط العائلي يتنشق من هواء معاملات ابويهِ اما نسيم الانتفاع والانانية او اريج المحبة والخدمة العامة فينشأُ نافعاً صالح الطبع . الطفل اشبه ببذار الزرع فكما ان البذرة التي تلقى في ارض جيدة ويتعهدها الفلاح بالسقاية والسماد والفلاحة تنمو وتكبر فتصير شجرة تعطي ثمراً جيداً هكذا الولد فاذا كان يحيط بهِ اخوة ورفاق طيبون شب وشاب على اخلاق طيبة عالية

ليس من اللازم ان تظهر في الولد علامات الفساد

والرداءة وان يسقط في الخطيئة حتى يبادر الى اصلاحهِ وليس في اصله سيء الاخلاق حتى يجتهد اهلهُ باصلاحها فيما بعد بل الواجب السهر على عدم ادخال الفساد اليه لان الاصل هو الصلاح . والفساد والرذيلة مناقضان لهذا الاصل

بناءً عليهِ ليس من حالات الانسان الطبيعية ان يكون اسيراً للخطيئة فهي عدو لهُ وغريبة عنه ويمكنه ان يتخلص منها بل يجب ان يتخلص منها . والاصل الصحة والمرض عارض فكما كان طبيعياً ان يعيش المرء بصحة جيدة هكذا كان طبيعياً ان يبقى على اخلاقهِ الجيدة وان في الانسان ملكة واستعداداً كافياً لاجل ان يكون كذلك واعظم عضد لهُ في حربهِ مع الخطيئة هو هذه القوى الاخلاقية الاصلية

النقطة الثانية : استعمال القوى الاخلاقية

ان مسألة استعمال هذه القوى والاستعدادات

الاخلاقية المكنوزة في الانسان استعمالاً موثراً هي مسألة مهمة جداً . ان ميول الانسان ورغائبهُ هي بمثابة (محرك) لارادتهِ فارادتهُ تابعة ميولهُ وشهواتهِ وتهيجاتهِ كل ما رغب بهِ واشتاقهُ جداً سعى اليهِ وتعقبهُ بسرعة فلذلك لم تكن الارادة وحدها كافية لاجل الاقتدار على العمل بل يجب مع الارادة الرغبة فيهِ والشوق الى الحصول عليهِ . لا يكفي ان ننوي على شيءٍ بنصف فكر لنالهُ بل يلزم ان نتعقبهُ بكل فكرنا ومن كل رغبتنا . امثلة ذلك كثيرة جداً . ان بعض الاشخاص الذين لا يقدرون على شيءٍ في الاوقات العادية يصبحون بدافع المحبة الوطنية اهلاً لاظهار شجاعة كبيرة في الاوقات الحرجة فكم من الاولاد المتاخرين في دروسهم يظهرون مهارة ونشاطاً في ميادين المسابقات بدافع الرغبة لنيل قصب السبق . كم من الناس يرضون بمفاداة عظيمة ومقاومة المشكلات الكبرى مندفعين الى ذلك برغبتهم في اختراع شيءٍ جديد فاذا احببنا شيئاً ورغبنا فيه جداً لا يكون وصولنا اليهِ متسحيلاً فلننو

ونعمل وقوة الرغبة المتملكة علينا تدفعنا الى الامام.

وهكذا ايضاً هي الاخلاق فسقوطنا اخلاقياً مسبب عن البرودة في نوايانا ومقرراتنا وعدم تهيجنا فاذا نوينا وقررنا بنصف فكر تكون العقبى اننا ننغلب . يجب ان نعيش على الصلاح والجودة والاستقامة والعفة واللطافة من كل قلبنا ومن كل فكرنا ولكن في دنيا المسرات هذه من يتعقب هذه الاشياء المجردة في عالم اللذة والسرور هذا ؟ من يفتكر بالحقيقة والصلاح ؟ نعم الذين يفتكرون قليلون جداً ولكن الاناس الحقيقيون هم الذين يبحثون عن هذه الامور

كل من يسقط في السيل يغرق ويهلك وانما المقدرة والعظمة هي للذين يمكنهم ان يقطعوا هذا السيل . وليس من انسان كبير الا وقطع هذا السيل . ان الانسان مخلوق عجيب ان شاء جعل الجنة جهنماً وجهنم جنة

V. Good

240:L72mA:c.1
ليفونيان ،لطفى
مكتبة الاخلاق الدينية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01000650

240
L72mA

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY

240
L72mA
c.1